من أنت ؟!

الدكتور إبراهيم أبو محمد

مكتبة الشروق

من أنت ؟!

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

مكتبـــة الشـــروق

إهـــداء

إلى الذين لا يعرفون من هم ولا من أين جاءوا ولا إلى أين المصير. إلى كل الغافلين عن غدهم، وإلى كل الحريصين على تأمين مستقبلهم، إلى أصحاب الطموح الذين يبحثون عن البقاء في دنيا الفناء .

إلى كل الذين لعبت بعقولهم أوهام الخرافة فتصوروا أنهم حرروا أنفسهم في الوقت الذي وقعوا فيه أسرى الحياة .

إلى الحائرين في دنياهم الذين تاقت أرواحهم شوقا إلى معرفة نقطة البدء والمنتهى فتاهوا وسط الطريق وتفرقت بهم السبل .

إلى هؤلاء جميعا اقدم هذا الكتاب لعلنا به نهدي حائرا، أو ننبه غافلا، أو نرشد ضالا، أو نطمئن به قلبا أرَّقهُ القلق، أو نؤمِّن به ضميرا ذهب به الخوف كل مذهب فكاد ان يقتله وأن يخنق فيه أشواق الروح حين تجِدُّ في البحث عن الحقيقة والتطلع نحو الخلود .

إلى هؤلاء جميعا أهدي هذا الكتاب .

المؤلـف

الدكتور إبراهيم أبو محمد

مقدمة

الإنسان المعاصر يعيش أزمتين اثنتين :

إحداهما داخلية في ذاته هو، والأخرى خارجية في البيئة المحيطة، فهو في داخله لا يعرف ذاته ولا يعرف من هو، ولا من أين جاء،ولا لماذا جاء، ولا إلى أين المصير .

وتلك أزمة كبرى تحيل ثمرات العلم إلى أدوات فتك وقتل وتدمير للحياة .. أما الأزمة الأخرى فهي في البيئة المحيطة به حيث الانفصام والازدواجية وتناقض الأقوال والأفعال، والصور والأشكال، والظاهر والباطن.

فعلى الوجوه ترتسم البسمة العريضة، وفي القلوب والضمائر يختبئ الحقد وتغلي الضغائن ويكمن الشر كله ليطفح خرابا وفتكا في الوقت المناسب.

وأمام ضغط الأزمتين يعيش الإنسان مؤرقا ومفزعا ومحبطا وغريبا حتى ولو كان بين أهله وعشيرته، وأغرب الغرباء من كان غريبا في وطنه .

وهو في مواجهة الأزمتين وتحت قسوتهما حدة وشدة أحد رجلين، إما أن يلجأ إلى ملجإٍ صحيح، ويلوذ بملاذ أمين وحصين، وإما أن يهرب من

المواجهة بالوقوع في غيبوبة الشهوات والملذات والولوغ في التدني إلى ما لا نهاية، في محاولة لنسيان الواقع والهروب من ضغطه وقسوته، وهكذا يعيش الإنسان في عالم غريب وعجيب .

فهو ينظر حوله فيجد عناصر الطبيعة ومفردات الوجود والكون تمارس دورها في تناغم وتناسق وانسجام، ويرى القوانين التي تحكمها تسير بدقة وإحكام، ولا يشذ في هذا الوجود إلا هو ... هذا الإنسان الضعيف والقوي، الجاهل والفيلسوف في آن واحد .. الطاغية والذليل معا، الحر والعبد، العملاق والقزم، الإنسان الذي يجمع المتناقضات كلها .... فيملأ الدنيا ظلما وفسادا بينما حياته بعوضة صغيرة تعدو عليه بميكروب ضئيل .

هذا الإنسان هو وحده الذي يشذ ويطغى، ويتكبر ويتجبر، ويظلم غيره ويفسد البيئة ويدمر الحياة في الوقت الذي تقف فيه مفردات الطبيعة من حوله عند حدودها، وتلتزم كل عناصر الوجود بدورها ودورة وجودها من البدء إلى المنتهى .

الإنسان وحده هو الذي يحول عالمه إلى غابة من المظالم، يمارس فيها الطغيان بلا مبرر، والعنف بلا سبب، والاحتكار والسيطرة عن طريق القوة بغير حدود أو قيود .

هذا الإنسان ، ما الذي دهاه حتى تحول إلى ذلك المخلوق القلق المتوتر دائما والعنيف أبدا ؟! ما الذي غاب عنه حتى فقد السكينة في حياته، والطمأنينة في نفسه والأمن والسلامة في يومه وغده؟!

لماذا يعيش هكذا وبهذا الشكل من الفوضى وعلى هذا المستوى من التسيب وانعدام المسئولية وغياب الأخلاق؟!

لماذا يتبدى الإحباط في حياته وعلى وجهه برغم وفرة الثروة؟

وأمام هذا الطوفان من المظالم والتناقضات ظل الإنسان والحياة لغزين لم تستطع كل الأيديولوجيات والفلسفات ان تحل إشكاليتهما أو تشفي غليل العقل بالإجابة عن التساؤلات الحائرة حول الإنسان وحول الحياة ... مَنْ أنا؟ أو مَنْ أنت؟ من أين جئت؟ ... ولماذا جئت؟ ... وإلى أين المصير ؟

وهكذا، الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارئ حاولت فيه أن أوضح الحقائق، وأن أضع النقاط على الحروف، وأن أشارك به في إزاحة هذا الكابوس الفكري والوجداني الذي بدد في الإنسان طاقاته وهدر وقته وأضاع عليه فرص الإبداع والعمل الجاد حين راح يبحث عن مفتاح الحياة وسط ركام أخطاء الفلسفة وعورات الأيديولوچيات الوضعية.

ووقفت به هذه الأخطاء وتلك العورات بعد جهد جهيد عند حدود الظواهر، ولم تستطع ولا يمكن ان تسبر غور الباطل أو أن تفتح له باب الخلود حين يبحث عنه العقل وسط ركام الخرائب في دنيا الفناء .

وهناك وسط الظلام الدامس يَتَبدى من بعيد صوت النبوة المفعم والمترع بالوحي المعصوم فيضيء الوجود، ويبدد الظلمات، ويفك أسر الحياة، ويعتقها من هذه الفوضى، ويجيب عن كل التساؤلات الحائرة، ويمنحنا مع ضوء النهار مفتاح الخلود وسر الوجود فيستريح العقل بعد طول عناء وتطمئن النفس وتسكن بعد طول أرق وقلق وشقاء .

﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾ (الحديد ٩) .

﴿فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾

(التغابن ٨)

مـن أنـا ؟؟

من أنا ..؟

من أين جئت ..؟

وإلى أين سأذهب...؟

تلك تساؤلات طرحت على مستوى كل العقول، وكل الثقافات تقريبا، واختلفت طريقة طرحها .

فأحيانا كانت تطرح صراحة وبوضوح .

وأحيانا كانت تطرح في خجل وعلى استحياء .

ومرة كانت تطرح بين الإنسان ونفسه .

ومرة أخرى طرحت بين الإنسان وغيره ... وربما على سبيل التحدي في حل لغز الحياة ... ولقد حاولت الفلسفة الإنسانية الوضعية أن تجيب عن تلك التساؤلات ... واجتهدت في حل اللغز ... ولكنها باءت بالفشل جميعها قديمها وحديثها ..

فكيف حاولت أن تجيب عن تلك التساؤلات ؟

وماذا قالت في تعريف الإنسان ؟

حيرة الفلسفة في تعريف الإنسان

الفلسفة الإغريقية تقول بقدرة الإنسان اللامتناهية على المعرفة، معرفة نفسه، ومعرفة الكون من حوله عن طريق العقل المجرد كما هو الشأن عند الإغريق، أو عن طريق ما يسمى بالعقل المطبق (التجربة) كما يقول «غاستون باشلار».[1]

لكن هذه النظرة برغم إيمانها بقدرة الإنسان غير المتناهية على المعرفة لم تستطع أن تعرِّف الإنسان بنفسه أو لم يستطع الإنسان من خلالها أن يعرف نفسه، ولم تقترب من اللغز أصلا فضلا عن تقديم حل مناسب وبقي السؤال:

من أنا ؟

من أين جئت ؟

وإلى أين المصير؟

---

(١) عالم فيزياء وفيلسوف فرنسي (١٨٨٤ - ١٩٦٢م) صدرت له مجموعة من المؤلفات منها «التحليل النفسي للنار» «الماء والأحلام» «الهواء والمنامات»،«الأرض وأحلام الإرادة» «الأرض وأحلام السكون» . يرى باشلار أن العلم بصفة عامة يعلم العقل وعلى العقل أن يخضع للعلم، للعلم الأكثر تطورا. وقد أمكن بفضل الانتقال من تعليم واقعي النزعة إلى تعليم نسبي النزعة. انظر معجم الفلاسفة ص١٣٠- ١٣١ جورج طرابيشي ، دار الطليعة بيروت طبعة أولى سنة ١٩٨٧ .

ولم تكن هذه الطروحات هي المحاولة الوحيدة للاقتراب من هذه المعضلة المعقدة ... وإنما كان هناك من يحاول أن يجيب ولو عن التساؤل الأول فقط..

من أنا ..؟

فطرحت إجابات، مضمونها وفحواها يدور حول الإيمان بأن الذات الإنسانية هي الميزان لقياس الأشياء جميعها، وأنه لاسلطان لأحد على الإنسان في توجيه فكره وسلوكه، وأنه وحده هو مصدر القيم، والخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وأنه الخالق الوحيد لهذه القيم، وحتى الدين إنه شعور فردي خاص به وحده .

ولكن هذه المحاولة لم تدخل في صميم التساؤل الحائر من أنا ...؟

وحاولت الفلسفة الوجودية أن تقترب من السؤال مباشرة فعرَّفت الإنسان بأنه كائن موجود بذاته فلم يخلقه أحد .

ولئن اختلفت مدارس الفلسفة الحديثة في تحديد حقيقة الإنسان واختلف رواد الفكر كذلك في تركيبة الإنسان ..

وهل هو مجرد عقل؟

أم هو تركيب بيولوجي معقد ؟

أم هو كائن اجتماعي أو تاريخي ؟

أم هو آلة إنتاج؟

أم هو قوة خَلْق وإبداع؟

أم أنه مجرد حيوان متطور ؟

لقد طرحت كل هذه النظريات حول الإنسان . واختلفت مدارس الفكر

والفلسفة حول أقرب الطروحات صحة وسلامة في تحديد ماهية الإنسان.[1]

إلا أن الجميع يتفقون على أن سلطة الإنسان فردا كان أو مجتمعا هي العليا، وحتى إذا كان الله موجودا فلا دخل له في حياة الإنسان كما يدعون..

فالإنسان كما يقول «سارتر»[2] متروك لنفسه، لأنه الكائن الوحيد الموجود لذاته وبذاته، فهو خالق لنفسه وحده، متصور لها، إنه في البدء لاشيء،وهو لايوجد إلا فيما بعد، حين يعمل، ومن خلال عمله يصنع نفسه ويحددها، وهو لذلك -في نظر سارتر- مسئول مسئولية حميمية عمايعمل ... فكأن وجوده في البدء لا شيء،ولايتحقق هذا الوجود إلا بعد أن يعمل كما يقول سارتر .

وقد شاركه كارل ماركس[3] في هذه النظرة التي ربطت بين الذات الإنسانية وبين العمل، فالإنسان بغير العمل لا شيء ...

---

(١) الماهية هي الحقيقة .

(٢) جان بول سارتر فيلسوف فرنسي (١٩٠٦-١٩٨٥) مؤسس مذهب فلسفة الوجودية، وهي فلسفة ترى أن حرية الإنسان هي صميم وجوده الشعوري القلق، فهو حر لأنه يخلق نفسه بنفسه كل لحظة وليس هناك طبيعة بشرية فُرضت منذ الأزل وليس هناك تعريف ثابت للإنسان كيف ينبغي أن يكون.
له عدة مؤلفات منها «الوجود والعدم» و «الغثيان» و «موتى بلا مدفن» و «الذباب الأبدي» .

(٣) كارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٢) فيلسوف الشيوعية المعاصرة، من أصل يهودي ألماني، درس القانون ثم انصرف إلى الفلسفة الاجتماعية والاقتصاد، اضطُهد في ألمانيا بسبب نشاطه الثوري، وانتقل إلى باريس ثم إلى إنجلترا حيث أقام بها وهناك التقى بفردريك إنجلز وتعاونا معا على إصدار الوثيقة الشيوعية الأولى المعروفة باسم المنشور الشيوعي ١٨٤٨م ثم أصدر الجزء الأول من كتابه «رأس المال» في عام ١٨٦٧م وبعد وفاته أخرج صديقه الجزأين الثاني والثالث، الموسوعة العربية الميسرة ج٢ ص ١٦١٥، إشراف محمد شفيق غربال، دار إحياء التراث العربي .

فـهـل ترى ـ عـزيزي القـارئ ـ أن هذه المحـاولة التي ربطت بين كـينونة الإنسان وبين العمل قد أجابت عن التساؤل الحائر أو حتى اقتربت منه . . ؟

إن كل الكائنات تعـمل . . وتبـحث لنفـسـهـا عن عـمل، ولو لمجرد أن تعيش . . .

فالبحث عن الطعام عـمل، والبحث عن الشراب عـمل . . والبحث عن الفريسة في الغابة ليأكلها القوي عمل . .

ومحاولة الفريسة في الهروب والاختباء حماية لنفسها من خطر الحيوان الأقوى عمل أيضا . . . فما الفرق بين الإنسان والحيوان إذا . . . ؟

وعلى كل حال، فقد بقي السؤال الأول « من أنا »؟ بغير إجابة أصلا . . لا شافية ولا كافية .

ولم يكن فيما طرحه سارتر وماركس مايسد حاجة الإنسان إلى معرفة نفسـه .

حيلة ساذجة وموقف عاجز

يبدو أن الفلسفة الوضعية المادية كلما عجزت عن الإجابة عن سؤال مطروح لجأت إلى حيلة موت الآلهة .

فالفيلسوف «نيتشة»(١) يقول عن الإنسان :

«لقد ماتت جميع الآلهة فلم يعد لنا من أمل إلا بظهور الإنسان المتفوق» ـ مافوق الآلهة هو الإنسان الجديد .

وهذه الفلسفة وإن تأثر بها الفكر الالماني إلا أنها في محاولة الإجابة لجأت إلى الحيلة نفسها «موت الآلهة» كي يظهر الإنسان المتفوق، ولكن حتى لو ظهر الإنسان المتفوق، أيمنع ظهوره من طرح السؤال؟؟ .

---

(١) هو فردريك فلهلم (١٨٤٤ـ١٩٠٠م) فيلسوف الماني، فلسفته تتميز بالشاعرية وغزارة الإحساس. تاثر بفلسفة شوبنهور وبشر بالإنسان الأعلى «السوبرمانSUPERMAN» وبأخلاقية السادة، وهاجم المسيحية لأنها في نظره لا تصلح إلا لسواد الناس ممن ينساقون وراء الأقوى، فهي أخلاق تعادي الممتازين لحساب الضعفاء . ويرى أن الهدف ليس مجرد الحياة، بل الحياة القوية، وسيحقق الإنسان بإرادته إنسانا أعلى يكون فوق الخير والشر. اهم مؤلفاته «مولد التراجيديا» «وهكذا تكلم زرادشت» . أصيب باضطرابات عصبية وانتهى به الأمر إلى مرض عصبي خطير . انظر معجم الفلاسفة، حرف النون.

لكن فيلسوفا آخر هو « كانط »[١] اعتبر الإنسان أغلى قيم الوجود،وأنه لم يوجد من أجل شيء أو غاية، وإنما وجدت الاشياء -كل شيء- ليحقق بها الإنسان ذاته .

فهو يقول : اعمل كما لو كنت تعامل الإنسانية في شخص، وفي أي شخص آخر كغاية لا كوسيلة . . .

واتسم هذا الطرح بكلمات المديح والثناء على الإنسان كأغلى قيم الوجود، ولكنه لم يقل لنا« من أنا »؟؟

من الإنسان؟ ماهو ؟ ماحقيقته؟ . . وبقي السؤال الأول كما هو لغز لايجد البشر له حلا . . .؟

ثم جاء « أندريه جيد »[٢] واعتبر الإنسان هو إله نفسه، وعليه أن يسعي إلى تحقيق السعادة الذاتية والمنفعة الشخصية بعيدا عن توجيهات الآلهة التى ماتت .

---

(١) كانط عمانويل فيلسوف ألماني (١٧٢٤-١٨٠٤م) يعد من أعظم الفلاسفة جميعا وله آثار عميقة في الفكر الألماني، عمل أستاذا لعلم المنطق والميتافيزيقية، نقد مذهب الشك الذي انتهت إليه فلسفة هيوم، فلسفته تسمى الفلسفة النقدية، ويرى كانط أن الأفعال الخلقية قد لا تجد جزاءها فى هذا العالم وهذا يحتم علينا أن نفرض خلود النفس ليتحقق ذلك الجزاء، وعلى أساس الإيمان أيضا تبرر حرية الإرادة ووجود الله، ويقول كانط إنه لاوجود للأخلاق دون اعتقادات ثلاثة: وجود الإله، وخلود الروح، والحساب بعد الموت . وهكذا يكون العلم مجال الظواهر والأخلاق مجال الشيء فى ذاته . من أهم مؤلفاته « نقد العقل الخالص » و « نقد العقل العملي » و « نقد الحكم »و« أساس الجانب الميتافيزيقي من الأخلاق » . انظر الموسوعة العربية الميسرة ج٢ ص ١٤٣٥ »

(٢) أندريه جيد (١٨٦٩- ١٩٥١م) كاتب فرنسي من رواد الفكر الفرنسي ومن اشهر كُتّاب القصة المعاصرين حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٤٧ له عدة مؤلفات منها « المستهتر »و « الباب الضيق » .

فهو يقول للإنسان : «كن مخلصا لنفسك وابحث لها عما ينفعها ويسعدها، إذ لم يبق ماهو أسمى منك بعد ما ماتت الآلهة في صراع مرير معها » .

هكذا يكون حل الإشكال الكبير في نظر الفيلسوف أندريه جيد أن يتحول الإنسان إلى إله بعد أن ماتت الآلهة ...

وأعتقد أيضا عزيزي القارئ أن هذا الطرح لم يحل المشكلة، فلا الدعوة لإخلاص الإنسان لنفسه قد أجابت عن التساؤل الحائر ... ولا الدعوة إلى تحقيق السعادة والمنفعة الذاتية قد أجابت عن التساؤل نفسه، وحتى موت الآلهة بعد صراع مرير معها كما يقولون... لم يحل المشكلة ولم يجب عن هذا التساؤل المزمن...

من أنا؟ من أين جئت؟ ولماذا جئت؟ وإلى أين المصير؟

حيرة الشعراء والأدباء

إذا تركنا الفلسفة بحيرتها وعجزها، فإننا نجد الكثيرين من الشعراء والأدباء قد عبروا عن هذه الحيرة في أشعارهم وكتبهم...

وأصبح السؤال بعيدا عن منطق الإيمان أشبه مايكون بقنبلة موقوتة داخل العقل البشري لا تلبث أن تنفجر فتسبب حيرة وضياعا، وتقابل أحيانا بشتى أشكال الرفض والتمرد .

وأحيانا تقابل بكثير من الفوضى والعبثية واللامبالاة .

ثم تنتهي في نهاية المطاف إما إلى الإيمان أو بزلزال مدمر .

فالشاعر عمر الخيام [1] حين يقول :

لبست ثوب العيش لم أستشر ... وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عني ... ولم أدرك لماذا جئت . أين المفر ؟

فهو سيخلع ثوب الحياة وينتهي الأجل دون أن يدرك من هو؟ ولماذا جاء إلى الحياة أصلا . . !! [2]

وهذه النظرة الحائرة تحدث في النفس ردود فعل متباينة . . .

بعضها يتسم بالتشاؤم والإحباط . وبعضها الآخر يطلق الإنسان في شهواته وملذاته بغيرضوابط أو حدود . . .

---

(١) هو أبو الفتح عمر الخيام (توفي في سنة ١١٣٢) . أشهر شعراء الفرس لدى الغربيين وأحد كبار الرياضيين والفلكيين العرب . عاش في ظل الدولة السلجوقية وكان صديقا لوزيرها نظام الملك اعظم وزراء زمانه . ترجمت رباعياته لأكثر من لغة اجنبية ، ونالت شهرة كبيرة في الأوساط الثقافية ، كما ترجمت أكثر من مرة إلى اللغة العربية ، وقام بترجمتها عدد كبير من الادباء منهم وديع البستاني في عام ١٩٣٢م ، واحمد الصافي النجفي ، والسباعي ، واحمد الصراف ، وأحمد رامي ، وعبد الحق فاضل وغيرهم . الموسوعة العربية الميسرة ج١ ص ٧٦٩ .

(٢) في حديث إذاعي تطرقت خلاله إلى بعض أشعار عمر الخيام وبعده اتصل بي هاتفيا الاستاذ الدكتور عبد القادر المارونسي أستاذ الأدب الفارسي في معهد إعداد المعلمين في مدينة كرج الإيرانية قائلا : « إن الشعر الإلحادي المنسوب إلى عمر الخيام دخيل عليه وليس من شعره ، وإن كثيرا من المحققين أثبتوا ان الرجل كان مسلما حسن الإسلام وحسن العقيدة ، وكان يدعى « حجة الحق » في زمانه . ولذلك رأيت من الأمانة العلمية إثبات مقولة الدكتور المارونسي هنا خاصة والرجل بين يدي ربه الآن ولايملك حق الدفاع عن نفسه . بالرغم من عدم توافر الادلة والمراجع التي تثبت ذلك الآن (حين طبع الكتاب) وقد تعهد الدكتور المارونسي مشكورا بتوفيرا هذه المراجع وإطلاعي عليها ، إحقاقا للحق وإنصافا للشاعر عمر الخيام وتبرئة له مما نسب إليه .

لاتشـغل البـال بماضي الزمـان ولا بآت العـيش قـبل الأوان
واغنـم من الحـاضـر لذاته فليس في طبع الليـالي الأمـان

فالأبيات دعوة صريحة ليعيش الإنسان لحظته فقط منقطعا عن الماضي والمستقبل معا... المهم أن يحقق الإنسان لنفسه أكبر قدر من الشهوات والملذات، وعليه ألا يتسـاءل من أنا، ولا من أين جـئت، ولا إلى أين المصير...

حيرة، وقلق، وضياع، وهروب من إلحاح العقل في طرح السؤال بالعَبِّ من ملذات الدنيا والاستغراق في غيبوبة الشهوات .

أطفئ لظى القلب بشهد الشراب فـإنما الأيام مـثل السـحـاب
وعـيـشنا طيف خـيـال فنل حظك منه قـبل فـوت الشـبـاب

ولندع قليلا عمر الخيام،ولنستمع إلى إيليا أبو ماضي [1]، فسنجد أن هذه التساؤلات الحائرة قد شغلته وشكلت له همّا عقليّا ووجدانيا، وحيرته ودارت به، وشرَّقت وغرَّبت، ولكنه رجع في نهاية المطاف بمفهوم أعاد إلى الأذهان فلسفة اللأدرية، وهي فلسفة تواجه مشكلات العقل والواقع لا

---

(١) شاعر عربي مهاجر (١٨٨٩-١٩٤٧م) ولد في لبنان وانتقل إلى مصر في صباه ثم سافر إلى الولايات المتحدة حتى مات هناك. شارك في نشاط الرابطة القلمية، وأسس صحيفة السمير العربية في نيويورك، له عدة دواوين شعرية ظهر أولها وهو تذكار الماضي في الإسكندرية في عام ١٩١١م، والدواوين الثلاثة الأخرى ظهرت في أمريكا، ديوان إيليا أبوماضي في عام ١٩١٦م، والجداول في عام ١٩٢٧م والخمائل في عام ١٩٤٦م، والأخيران يضمان أنضج شعره الذي تحدث فيه عن الحب وعشق الطبيعة وسيطرت عليه نغمات الشك والحيرة والحزن الشائعة في الأدب المهجري . انظر الموسوعة العربية الميسرة ج١ص٣٩ .

بالتصدي لها، ومحاولة فهمها وإيجاد الحلول المناسبة، وإنما بالهروب منها جملة وتفصيلا بكلمة واحدة هي «لا أدري» .

جــئت لاأدري من أين جــئت ولـــكــــنـــي أتـــيـــت
ولقـــد أبصـــرت قـــدامي طريقـــا فـــمـــشـــيت
وســأمــضي ســائرا إن شــئت هـــــذا أو أبـــــيــــت

كيف جئت..؟

كيف أبصرت طريقي؟

لست أدري ؟

ولماذا لست أدري؟

لست أدري ؟

هكذا، وببساطة شديدة، وفي جملة واحدة تم الهروب من المشكلة. ولماذا لانفهم ... لست أدري ...

ويلاحظ هنا أن الحيرة والشك والتردد والقلق قاسم مشترك في الإجابات عن تلك التساؤلات، فليست هناك إجابة عقلية منطقية تحمل دليلها، وتقنع الإنسان وتنتشله من أعماق التيه والضياع، وتصل به إلى شاطئ الأمان .

وعندما حاول أحد الشعراء الآخرين حل اللغز فإنه لم يواصل مسيرته العقلية إلى النهاية، وإنما توقف عند مفهوم «لغز الحياة» وأنها طلسم كبير متعدد الجدران ... الناس حوله يدقون ويقرعون الأبواب ولا أحد يسمع أو يجيب ... إنها لغز حار فيه الأذكياء .

يقول الشاعر :

جـئنا إلى الدنيـا كـمـا ... شـاء الذي رفع السـمـاء
خـاف علينا السـر إن ... عـشنا وإن مـتنا سـواء
وغـدا سـيـسـحـقنا الردى ... حـتـمـا وبطوينا الفناء
وغـدا يبـعـثـرنا الزمـا ... ن كـذرة بين الفـضـاء
ونـقـابـل الـديدان تـأ ... كـلـنا ويا بـئس اللـقـاء
ونـداس بـالأقـدام بعـ ... ـد الفـقـر أو بعـد الثـراء
دنيـاك سـرٌّ غـامض ... قـد حـار فـيـه الأذكـيـاء

والحقيقة - عزيزي القارئ - أن هذه الحيرة نشأت أصلا نتيجة أن كل هؤلاء السابقين - شعراء وفلا سفة - الذين استعرضنا هنا فكرهم وحيرتهم وقلقهم، تعاملوا مع المشكلة لا من داخلها ولا من خارجها وبغير منهج موضوعي ومعقول، فلم تأت محاولا تهم إلا بمزيد من الحيرة والشك، ثم الفوضى والتسيب والرفض المطلق لأي شيء، ولكل شيء، وكذا التمرد والثورة على كل حقيقة وكل قيمة ... مرة بالمغالاة والمبالغة في قدرة الإنسان على كل شيء حتى على خلق نفسه ...

ومرة أخرى بحيلة رخيصة ودعوى مكشوفة بموت الآلهة بعد صراع مرير معها كما يدَّعون .

المهم أن هذا اللف والدوران حول الأسئلة الحائرة لم يأت بطائل !

إنه لم يمنح العقل دليلا صادقا .....

ولم يمنح النفس سكينة وهدوءا . . . .

ولم يمنح الوجدان طمأنينة ورضا . . . .

وبقيت الأسئلة الحائرة في مواجهة الإنسان بمختلف مستوياته العقلية والثقافية والمعرفية، كأنها قدر لا فرار منه ولا فكاك . .

من أنا ؟

من أين جئت . . .؟

لماذا جئت . . .؟

إلى أين سأذهب . . .؟

وستبقى هذه التساؤلات بلا إجابة مقنعة طالما تعامل معها الإنسان بعقله المجرد دون الا ستعانة واللجوء إلى منهج السما ء، فالعقل وحده لا يستقل بإدراك كل الحقائق وإن أدرك بعض الحقائق، ومن ثَمَّ فهو هنا ليس كافيا وليس قادرا على إعطاء أحكام صادقة قاطعة في كل القضايا المتصلة بالنفس الإنسانية، وما فيها من أبعاد مادية ومعنوية، مرئية وغير مرئية . . وما فيها أيضا من طاقات وملكات مشهودة وغيبية . . .

فعالم الغيب أو العالم الميتافيزيقي ليس في مقدور العقل أن يعطي فيه أحكاما صادقة . . .

بل إن العقل وحتى هذه اللحظة، ومع نهاية القرن العشرين،وبكل أدوات العلم الحديث لم يستطع أن يعطي أحكاما قاطعة في كل القضايا المادية المحسوسة وإن حقق الكثير و الكثير من الإنجازات في عالم المادة . . . فما زالت في عالم المادة وأمام العلم التجريبي الكثير من المشكلا ت لم تحل بعد ، كقضية الفيروسات، ونمو الخلايا وخروجها عن نطاق السيطرة،

وكذا عودة بعض الميكروبات المنقرضة والتي ظن الإنسان أنه قد قضى عليها كميكروب السل والملاريا وغيرها ...

وبالتالي، فما دام هذا العقل بقدرته المحدودة وفي الزمن المحدود، وفي البيئة المحدودة لم يستطع أن يعطي أحكاما قاطعة في قضايا المادة فكيف يستطيع أن يمنحنا أحكاما صادقة وقاطعة في عالم آخر هو فوق المادة وهو «عالم الغيب»....

لذلك لا بد مع العقل من النقل[1]، بشرط صحة الرواية وسلامة التوثيق، وذلك لا يتأتى ولا يتحقق إلا عن طريق الوحي المعصوم الذي يمنحنا أحكاما صادقة وقاطعة في عالم آخر فوق المادة والذي هو عالم الغيب، ولا يوجد كتاب على وجه الأرض حظي بصحة الرواية - تاريخيًا وواقعيًا - وسلامة التوثيق العلمى بشروطه المكتملة مثلما حظي القرآن الكريم وكذا سنة رسول الله ﷺ فلنحاول أن نقترب من المشكلة بأدوات العقل ممثلة في العلم التجريبي وبأدوات النقل ممثلة في النصوص الكريمة قرآنا وسنة .

(١) المقصود بالنقل هنا هو الوحي السماوي قرآنا وسنة .

أمراض النفس وعلاج القرآن لها

على طريقة الأطباء في وصف الدواء وتشخيص الداء سنعرض وصفة قرآنية نزل بها الوحي المعصوم وقدمها لنا النبي الكريم طبيب القلوب ومربي النفوس .

وقبل أن نعرض الوصفة لا بد أن نعرف أن النفس البشرية كالبيت، ما لم يتعهده سكانه بالرعاية والعناية والتنظيف الدائم يصبح عرضة للأتربة والغبار، وقد تسكنه الحشرات والهوام، وأحيانا يكون مرتعا لبعض الحيوانات كالقطط والكلاب الضالة وغيرها .

والنفس الإنسانية كذلك بعيدا عن الرعاية والعناية كالبيت الخرب الذي يكون متاحا ومفتوحا لكل شيء فلا ساكن فيه يرعاه، ولا حارس له يحميه ويصد عنه ...

وقد بين لنا خالق النفس أنها قابلة للخير والشر، وأن طبيعتها هكذا، وأنها ترتفع وتنخفض، وتعلو وتهبط، وتسمو وتتدنى، وفق ما يقدم لها من خير أو شر، وعلى صاحبها أن يختار لها، وأن يهتم بتربيتها، وأن يقدم لها من ألوان الخير والبر ما يزكيها ويرفع قدرها وقيمتها، وبهذا يتحقق له الفلاح في الدنيا والآخرة... وإلا فإنها الخيبة والفشل والضياع في الدنيا، ثم سوء المصير في الدار الآخرة .

قال تعالى :

﴿ ونفسٍ وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها* قد أفلح من زكاها* وقد خاب من دساها ﴾ [1].

فكل النفوس هكذا إذا قابلة للخير والشر، ولم تسلم نفس من هذه القابلية إلا نفوس الأنبياء وحدهم... والنفس الوحيدة التي أهلت لالا تستقبل إلا أمواج الخير هي نفس رسول الله ﷺ ..

ما عدا هذه النفس ... فكل النفوس قابلة للخير والشر ...

والقرآن الكريم يبين لنا أن الإنسان هو أعظم مخلوق على وجه الأرض. هذا المخلوق العظيم يجب أن يتعهد نفسه بالعناية والرعاية والحفظ، ومن هنا لا بد أن يبحث لها عن أفضل أسلوب وأنسب طريقة لصيانتها .

حماية النفس وصيانتها

فكيف نجد هذا الأسلوب وتلك الطريقة ...؟

وأين نبحث عنهما ..؟ وهل نجدهما في فلسفة أرضية ...؟ لا ... لماذا...؟ لأن صيانة هذه النفس بطريقة صحيحة ومناسبة لا تتم أصلا إلا من خلال هذا المصنع الذي صنعها ... والذي صنعها هو الله جل جلاله... وبالتالي فصيانتها وأفضل الطرق وأنسب الأساليب لحمايتها والعناية بها لا تتم ولن تتم إلا من خلال المصنع الذي صنعت فيه، وخلقت منه وصدرت عنه... وكل صيانة تتم خارج هذا المصنع وبكيفية

---

(١) سورة الشمس (٧-١٠) .

غير التي حددها ستبوء بالفشل، ولن تحقق لهذه النفس الطمأنينة والسعادة والرضا...

ولذلك، فإن المتأمل في القرآن الكريم يجده عبارة عن كتاب هداية وكتاب توحيد وإرشاد.. (إنه خريطة وبوصلة) تسلم النفس معها من الانحراف والضياع، وهو يحدد لها كيف تكون في مأمن من الشرود والقلق.

وكيف تحمى ذاتها من هجمات الشيطان .

وكيف تتعامل مع غيرها وكيف تؤدي وظيفتها بالشكل اللائق.. ثم هو يريحها من هم التساؤل حول المبدإ والمنتهي بما يحويه من إجابات مقنعة وما يتضمنه من حقائق صدقتها وتصدقها الفطرة السوية، ويثبت العلم صدقها في كل يوم .

إنه بهذه الحقائق يجيبها عن كل سؤال حائر، ويشفي غليلها في التطلع إلى المعرفة الحقيقية بعيدا عن التخبط العشوائي ودروب الظنون والأوهام .

ولنبدأ بعد هذا التمهيد بالوصفة الأولى لشفاء النفس من سقامها كما حددها الوحي المعصوم .

﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدًى ورحمة للمؤمنين ﴾ . [1]

ويلاحظ أن هذه الوصفة مركبة من أربعة أنواع من الأدوية الإلهية .

---

(١) سورة يونس: ٥٧ .

فالدواء الأول وهو الموعظة . قد أسيء فهمه وأسيء استعماله، بل قد أسأنا من البداية فهم معناه...

فهل الموعظة حديث في مسجد يجرى على لسان إمام أو خطيب أو حتى داعية بكلام مرتب أو غير مرتب ..؟ مقبول أو غير مقبول ..؟ معقول أو غير معقول ..؟ ثم ينتهي الموضوع في نصف ساعة وينتهي الموقف ...؟

هل هذه هي الموعظة ...؟؟ لا ...

نحن حين نفهم الموعظة هذا الفهم نكون قد أسأنا لمنهج الله تعالى . إذا ما هي الموعظة ؟

إنها منهج في المعرفة يشكل القسمات العامة لشخصية المسلم في تفكيره، وثقافته، وإدراكه لحقائق الأشياء، وحكمه على الأمور كلها . فالموعظة منهج يعيد تشكيل البناء العقلي والثقافي والسلوكي في حياة المسلم .

ميادين عمل الموعظة

والموعظة كمنهج في المعرفة تعمل في ثلاثة ميادين :

١- الميدان الأول هو :

ميدان النفس الذاتي .

٢- الميدان الثاني هو :

ميدان البيئة المحيطة بالإنسان .

٣- الميدان الثالث هو :

ميدان الكون الواسع العريض .

الميدان الأول

أما الميدان الاول وهو ميدان النفس الذاتي، فإننا نجد أن القرآن الكريم يبدأ أولا بتعريف الإنسان بنفسه :

مَن أنت أو مَن أنا ...؟

من أين جئت ...؟

ولماذا جئت ... ؟

وما هي رسالتك ...؟

والزمن الذي تعيشه متى بدأ ..؟ ومتى سينتهي ..؟ وهل هو يبدأ بمرحلة الميلا د وينتهي بمرحلة الوفاة ... أم أنه يمتد في عمق الزمان الماضي إلى ما قبل مرحلة التخليق قبل أن يتكون الإنسان جنينا في رحم الأم ..؟

هذه هي التساؤلات التي طرحها العقل ويطرحها قديما وحديثا وقد حيرت الفلاسفة حين تعاملوا معها من منطلق أرضي ولم يهتدوا بمنهج السماء في التعرف على الإنسان بداية ونهاية، ونشأة وتكوينا . وما لم تكن هناك إجابات منطقية ومحددة سيحدث خلل في الفكر، وقلق في النفس، وشذوذ في السلوك...

بل سيظل الإنسان مختل العقل، معتل الفكر، شاذ السلوك، لان السلوك عبارة عن تطبيق لفكرة في الذهن، فإن كانت الفكرة خاطئة فلن ينتج عنها إلا سلوك خاطئ، ومن هنا كانت الحيرة والقلق والتردد والشك.

ومنهج المعرفة في الموعظة هنا يقدم للإنسان الدواء والشفاء، وينقذه ويوجه طاقات العقل - المبددة في الحيرة والتساؤل - إلى الأعمال المفيدة، ويقول لك سوف أريحك من التساؤلات التي لم تجد عنها إجابة ...

مَن أنت ...؟ أنت سيد الوجود .. أنت سيد الكون كله عندما تكون عبداً لله ...

أنت الملك ... والسيد المطاع، وكل ما في الكون مسخر لك .. الشمس والقمر والنجوم والبحار والأرض والسماء وكل ما في الوجود مسخر لخدمتك، خلقه الله من أجلك .

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ﴾ . [1]

﴿ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار* وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ . [2]

ويلاحظ هنا كلمة «لكم» وكيف تكررت في النص الكريم لتذكر الإنسان بموقعه وأهميته ورسالته ... فهو السيد المطاع . لا بين العبيد والخدم ... وإنما هو السيد المطاع بين السادة الاتباع طالما ظل عبدا لله خليفة له في أرضه يقيم العدل ويعمر الأرض باسم الله ويحقق في ذاته شروط العبودية .

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ [3] .

﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [4] .

فإذا خرج الإنسان عن نطاق العبودية أصبح أهون على الله وأهون على الوجود من أقل حشرة في هذا الكون ...

---

(١) سورة الجاثية : ١٣ .
(٢) سورة إبراهيم : (٣٢-٣٤) .
(٣) سورة البقرة : ٣٠ .
(٤) سورة الإسراء : ٧٠ .

﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ . [1]

﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين* ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون* ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ [2] .

هذا هو السؤال الأول ... من أنا أو من أنت .. المنهج قد أجابني على هذا التساؤل : أنا خليفة الله في الأرض ... خلقني بيده الكريمة، وأمدني بروح منه، ومنحني الحياة والحركة، وأمدني بمنهج وخطة ورسول ورسالة ...

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٢) سورة الأعراف : (١٧٥-١٧٧) .

من أين جئت ؟

أما السؤال الثاني من أين جئت ...؟ فإن القرآن الكريم عندما شرع في الإجابة عن هذا السؤال استخدم ميدان النفس الذاتي في التدليل على صدق ما جاء به ... وكان خطابه شديد الوضوح، شديد الوقع، شديد التأثير .

إنه لم يدخل بالإنسان في تفاصيل فلسفية وسراديب فكرية تتوه معها الحقيقة ويشرد الإنسان ...

ولم يحدّث الإنسان عن تجارب علمية معملية معقدة لا يفهمها إلا أهل الاختصاص في الأكاديميات العلمية .. إنه لم يفعل ذلك، وإنما استخدم أشياء كل الناس يعرفونها وتوجد في الجميع ...

من أين جئت ... ؟ هذا هو السؤال ... فتكون الإجابة :

﴿ **نحن خلقناكم فلولا تُصَدِّقون** ﴾ [1] .

والدليل ﴿ **أفرأيتم ما تُمْنُون** ﴾[2] . إنه الحيوان المنوي، هذا الحيوان خلية من الخلايا لا ترى إلا بالمجهر، وتكبر تحت المجهر آلاف المرات كي تراها العين في حجم رأس الدبوس، وهي مع هذا الحجم الضئيل تحمل الجينات

---

(١) سورة الواقعة : ٥٧ .

(٢) سورة الواقعة : ٥٨ .

الوراثية كلها .. ففيها خصائص الذكورة والأنوثة، وفيها لون العينين، وفيها لون الشعر وما فيه من انسيابية أو تجاعيد، ولون البشرة، وغير ذلك من الصفات...

أين تكمن كل هذه الصفات في الحيوان المنوى ... ؟ أين يوجد الذكاء الإنساني فيه ؟ .

أين تكمن خلايا الأذن، وخلايا الجهاز العصبي، وخلايا الجهاز البولي والتناسلي ؟ والخلايا التي تكون العينين والأسنان والذوق والشم وغير ذلك من الملكات والمواهب التي تميز الإنسان وتجعله سيدا ودونها يتحول إلى معاق يحتاج إلى غيره ولا يقوم بذاته ...؟

ونعود للنص الكريم :

إن ميدان النص في الذات الإنسانية .. ﴿**نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون* أفرأيتم ما تُمْنُون* ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون...**﴾.[1]

حديث للنفس عن النفس يحدد نقطة البدء وأصل الخلقة والتكوين، والإرادة العليا التي تجلَّت بالإبداع في هذا المخلوق كما تجلت بالإبداع والعلم في كل مفردات الوجود .

إنها هي وحدها التي تحيل العدم إلى وجود .

والفناء إلى بقاء .

والموت إلى حياة .

والسكون إلى حركة .

---

(١) سورة الواقعة : (٥٧-٥٩) .

وترفع من قدر الشيء المهين ليكون إنسانا مكرما يمارس دوره في هذا الكون .

﴿ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين* إلى قدر معلوم*فقدَرْنا فنعم القادرون ﴾ . (١)

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ . (٢)

بعض الصفات المشتركة بين الله والإنسان

وبعدما يتكون الإنسان - بإرادة الله خلقا آخر - فإن الله جل جلاله يضفي عليه بعض صفاته ويمنحه شيئا من تجليات أسمائه الحسنى ...

فيمنحه السمع ... والله سميع .

ويمنحه البصر ... والله بصير .

ويمنحه الحياة ... والله حيّ .

ويمنحه العلم ... والله عليم.

وإذا كانت هذه الصفات ذاتية في الله سبحانه وتعالى، فهي عرضية في الإنسان أي أنها متغيرة في الإنسان وليست ثابتة، كما يمنحه بعض

---

(١) سورة المرسلات : (٢٠-٢٣) .

(٢) سورة المؤمنون : (١٢-١٤) .

القدرة، وبعض الثراء بالملكات المتعددة ثم بالمال نتيجة للسعي والكسب واستعمال تلك القدرات .

وهذه الصفات في البشر قد تخرجهم من نطاق البشرية ما لم تكن محكومة بإطار من العقيدة الصحيحة،ومسيَّجة بسياج من معرفة الإنسان لربه، ومعرفته لنفسه، وأنه وما يملك إنما هو منحة من الله الذي خلق فسوى وقدر فهدى . . .

وأن وجوده في رحلة الحياة الدنيا مؤقت بزمن .

وأن وراء الدنيا حياة أخرى باقية وخالدة، والإنسان فيها مؤاخذ بما كسبت يداه، وأنه مجازى بالسوء سوءا وبالإحسان إحسانا .

علاج الغرور وتورم الذات

وهذا الربط بين الحياة والموت يحد من غرور الإنسان وكبريائه، فلا يتيح فرصة لتتورم الذات وتغتر وتخرج عن نطاق كينونتها المحدودة، فتظن أنها بالعقل والعلم والإنجازات المتعددة قد ملكت زما م الأمور وسيطرت على كل شيء .

لذلك كان الحديث عن الموت مقرونا ببداية الحياة في قصة الوجود الإنساني . .

﴿ نحن خلقناكم فلولا تُصدِّقون * أفرأيتم ما تُمْنُون* ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون* نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين* على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ .[1]

---

(١) سورة الواقعة : (٥٧ - ٦١) .

وتقدير الموت هنا مقرونا ببداية الحياة إنما هو لكسر غرور الإنسان كما أشرنا، ثم هو تذكير للبشر بقانون القهر الإلهي الأكبر الذي يجري على الجميع ولا يستثني أحدا، لكن الإنسان قد ينسى أو يتغافل عن الموت، لذلك كانت حاجته اليومية إلى النوم وهي حاجة لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه . فكأن النوم إنما هو تذكير للإنسان بالموت لأنه مظهر من مظاهر قانون القهر الإلهي الأكبر، وكما لا يستطيع الإنسان أن يدفع عن نفسه النوم، فهو كذلك لن يستطيع أن يدفع عن نفسه الموت، فالنوم تذكير بالموت واستحضار له ونحن نمارسه كل ليلة . فالنوم مظهر من مظاهر القانون الأكبر قانون القهر الإلهي «الموت» .

والنوم يجري أيضا على الصغير والكبير، والغني والفقير،وبدونه لا يستطيع الإنسان أن يواصل الحياة فهو يشكل ٣٣٪ من عمر أي إنسان على الأرض، كما أنه آية من آيات الله في الخلق ... ونعمة من نعمه المهمة لتتواصل حياة الإنسان المادية بشكل سوي بعيدا عن الاختلال والاضطراب،لذلك امتن الله به على عباده حين قال :

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ . (١)

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سُباتا وجعل النهار نشورا ﴾(٢).

والسُّبات في اللغة معناه الراحة ... فالنوم هو الموت الأصغر، لذلك أطلق القرآن عليه هذا الاسم حين قال:

---

(١) سورة الروم : ٢٣ .

(٢) سورة الفرقان : ٤٧ .

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمّى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

فالنوم هنا - وبنص آيات القرآن الكريم - يجب أن يكون موضع اهتمام العقل والتفكير ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ لا لذاته وإنما لمايحمله من معان كبيرة تهتف بألف لسان وتشير بألف إشارة إلى عجز الإنسان المطلق أمام هذا القانون . . .

وكما ينام الإنسان ويصحو كذلك يموت ويبعث مرة أخرى . . .

وكما يعجز الإنسان عن مقاومة النوم، فكذلك يعجز عن حماية حياته من الموت حين يأتي الأجل المسمّى . . .

وهذه المعاني عندما تستحضر في الذهن وتستدعى على عجل من الذاكرة تعيد للإنسان وعيه بحجمه الطبيعي ووزنه وقيمته وقدره . فتبدد في ذاته كبرياء الامتلاء بالمال، وغرور النفس بالجاه العريض كما تحميه - بالتواضع - في ساحات العلم ومختبراته ليطامن من الاستعلاء المحموم، وليعلم أنه محكوم بقدر الله وسننه في الليل والنهار، بل في كل لحظة من لحظات حياته اليومية . . لهذا جاء النص الكريم في قصة الحياة مقرونا بالموت . . لأن الله يعلم أن هذا المخلوق يطغى ويتكبر ويتجبر ويعيث في الأرض فسادا، لذلك كان من المفروض أن يُذكَّر في بدايات الحياة الدنيا بقضية الموت الذي ينتظره ويقف به أمام الله للبعث والجزاء بعد هذه الحياة طالت أو قصرت . . .

---

(١) سورة الزمر : ٤٢ .

﴿نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون﴾ ..[1]

الميلاد والموت امتدادان للوجود

وكما لا تنتهي الحياة بالموت، كذلك هي لاتبدأ بلحظة الميلاد كما يفهم البعض، ومن مزايا الإسلام أنه دين يمد الحياة في عمق الزمان إلى ما لا نهاية...

وما هذه الدنيا إلا مرحلة من مراحل الوجود الإنساني، وحلقة من حلقاته، وطور من أطواره، فعمر الإنسان يمتد إلى ما قبل مرحلة التخليق في رحم الأم، وبالتالي فوجوده هنا في الدنيا إنما هو امتداد لوجوده السابق فيما قبل الميلاد...

ووجوده هنا في الدنيا إنما هو مزج بين المادة والروح حين تلبست الروح بالجسد، ولكن هذه الروح كان لها وجود سابق، واعترفت خلال هذا الوجود السابق لله بالربوبية حين كانت في عالم الذر (عالم الأرواح)....

الإيمان بالله فطرة أقرت بها الأرواح قديما

وهذه المرحلة عبر عنها القرآن الكريم في قوله تعالى :

---

(١) سورة الواقعة : (٦٠-٦١) .

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ (١) .

وفي هذا إشارة إلى :

« أن الأرواح البشرية موجودة قبل الأبدان، والإقرار بوجود الإله من لوازم ذواتها وحقائقها، وهذا العلم ليس مما يحتاج في تحصيله إلى كسب وطلب، وهو المراد بأخذ الميثاق عليهم، لكنها بعد التعلق بالأبدان يشغلها التعلق عن معلومها فربما تتذكر بالتذكير والتنبيه، وربما لا تتذكر » (٢) .

فالحق سبحانه خلق في الإنسان من وقت تكوينه إدراك أدلة الوحدانية، وجعل في فطرة حركة تفكير الإنسان التطلع إلى إدراك ذلك وتحصيل إدراكه إذا جرَّد نفسه من العوارض التي تدخل على فطرته فتفسدها .

وفي هذه الآية دليل على أن الإيمان بالله الواحد مستقر في فطرة العقل لو خُلِّي ونفسه، وتجرد من الشبهات الناشئة فيه من التقصير في النظر أو الملقاة إليه من أهل الضلالة بقصد أو بغير قصد » (٣) .

وفي هذا النص أيضا إقرار من بني آدم بأن الله سبحانه أشهدهم على

---

(١) سورة الأعراف : (١٧٢ - ١٧٣) .

(٢) انظر تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٩ ص٨٣ للإمام نظام الدين الحسن بن محمد ابن الحسين القمي النيسابوري المتوفي في سنة ٧٢٨ هـ تحقيق ومراجعة الشيخ/ إبراهيم عطوة عوض - مطبعة البابي الحلبي .

(٣) انظر تفسير التحرير والتنوير ج ٩ ص ١٦٨ - ١٧٠، بتصرف للإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر .

أنفسهم وهم في عالم الأرواح، حيث تشعر كل روح بذاتها ووجودها، فشهدوا جميعا وقالوا : «بلى أنت ربنا وخالقنا» .

«وهذا العهد تم وهم بعد في «عالم الذر» وهو دليل على أن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشرى أودعها الخالق فيه وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة» .(١)

أما الرسالات فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى فيحتاجون إلى التذكير والتحذير . وبالتالي، فالتوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى .

فلا حجة لهم في نقض الميثاق حتى لو لم يبعث إليهم بالرسل يذكرونهم ويحذرونهم، ولكن رحمته - سبحانه - اقتضت الا يكلهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف .

وألا يكلهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاها لهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.(٢)

فوجود الإنسان هنا إنما هو امتداد لوجوده السابق في عالم الأرواح قبل أن ترتدي الروح ثوب هذا الجسد المادي المحسوس.

---

(١) انظر التفسير القرآني للقرآن المجلد الثاني ص ٥١٥ بتصرف للاستاذ / عبدالكريم الخطيب دار الفكر العربي .

(٢) انظر تفسير الظلال للشهيد المرحوم / سيد قطب المجلد الثالث ص ١٣٩١ الطبعة الشرعية العاشرة سنة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م دار الشروق .

والروح إنما هي من أمر الله ومصدرها هو سبحانه وتعالى، وهي لاتدرك بالحواس، وإنما تدرك آثارها في الجسد، والجسد مادة من هذه الأرض لذلك عند الموت تعود الروح لمصدرها ويعود الجسد لمصدره :

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (١) .

﴿ يأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي* وادخلي جنتي ﴾ (٢).

أما الجسد فيعود هو الآخر لأصله :

﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ (٣) .

والضمير هنا يعود إلى الأرض التي منها خلق الجانب المادي في الإنسان.

وبعد أن تتلبس الروح بالجسد في بداية الحياة الدنيا ويأخذ الإنسان حظه من العمر في هذه الحياة يأتيه الموت، لا على أنه نهاية النهايات وبداية الفناء كما تقول بذلك فلسفات مادية قطعت صلتها بالعالم الآخر ونسيت أو تناست أطوار الحياة، وتغافلت عن نداء الفطرة فيها، وأصمت آذانها عن منطق العقل المجرد، وخضعت للأهواء، وأنكرت وجود الله والدار الآخرة، وقال أصحابها ، كما حكى القرآن عنهم :

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ .(٤)

---

(١) سورة الإسراء : (٨٥) .
(٢) سورة الفجر : (٢٧-٣٠).
(٣) سورة طه : (٥٥).
(٤) سورة الجاثية : (٢٤).

إنما الموت هنا هو بداية لمرحلة أخرى، كما أن الميلاد بداية مرحلة وبداية طور جديد من أطوار الوجود الإنساني .

والإيمان بهذه الحقيقة يساعد الإنسان على التوازن في هذه الحياة، ويدفع عنه أسباب الإحباط والقنوط... وما أتعسها من مأساة مروعة إن كان الموت هو النهاية النهائية لقصة الحياة، وجل جناب الله أن يكون الأمر كذلك، فعدالته لابد أن تأخذ مجراها في نهاية المطاف وقبل أن تستقر الخلائق في مأواها الأخير من النعيم أو الجحيم .

لماذا جئت ؟

أما السؤال الثالث لماذا جئت ...؟ فهو سؤال خطير تتحدد على ضوء الإجابة عنه مكانة الإنسان ومكانه في هذا الكون . فهل جاء الإنسان في الوجود ليتمتع ويتكاثر ويجمع المال ويفني شبابه وعمره في تلك الأشياء ويأكل كما تأكل الأنعام ثم ينتهي الأمر ...؟!

البهائم تأكل كما يأكل الإنسان، ويأتيها رزقها كما يأتيك رزقك، ولكنها بمنأى عن همّ الرزق .

وهي تتناسل كما يتناسل الإنسان، ولكنها بمنأى عن همّ الخوف على الأولاد..

وهي مسخرة للإنسان كما سخر بعضنا لبعض، ولكنها بمنأى عن خوف الخلق ومذلة الحاجة، والنفاق الممقوت، وتعيش بوجه واحد فقط، وتعبر عن نفسها في تلقائية ووضوح . وتمرض كما نمرض، ولكنها بمنأى عن خوف الموت ..

ويصيبها الفقد كما يصيب البشر ولكنها بمنأى عن همّ الجزع... فهل يتحول الإنسان في مرحلة الحياة إلى مجرد حيوان ناطق لا يرتقي في سلم الخلائق إلا بالنطق فقط ... ؟

إن كان الأمر كذلك فالحيوان أفضل منه، وحظه ونصيبه في تلك الحياة أوسع، فهل الأمر كذلك فعلا ...؟

بعض الفلسفات - مع الأسف الشديد - تبنت هذا التصور البدائي للإنسان...

ثم جاءت الأديان قبل الإسلام وحاولت تصحيح الفكرة وتصويب الخطأ، ولكن التحريف والتبديل الذي طالها وتعرضت له حوّلها في نهاية الأمر إلى ذلك المصير المشئوم في تصور الإنسان ...

ثم جاء الإسلام ووضع الأمور في نصابها كما وضع النقاط على الحروف في تحديد مهمة الإنسان ورسالته ...

فالإنسان في منهج الإسلام خليفة عن الله في الأرض، ووجوده في الدنيا مرتبط برسالة مهمة يتحمل وحده مسئولية أدائها على الوجه الكامل .

لقد وجد ليحقق خلافته عن الله في الأرض، فهو أعلى المخلوقات رتبة وترتيبا بهذه الخلافة وعليه ان يحقق عبوديته لله أولا ليكون أهلا لهذه المنزلة.

وهذه العبودية لا تتحقق بمجرد الهتاف باسم من ولاه واختاره خليفة . .

وإنما لابد لتحقيق هذه الخلافة من العلم . . فلا يمكن أن تتحقق له الخلافة في عمارة الأرض وتشييد الحياة وإقامة المجتمع الفاضل وتحقيق العدل إلا بالعلم . .

ولذلك اعتبر الإسلام الذكاء المجرد مع خبث النوايا شرًّا .

واعتبر التدين المصحوب بالجهل مع سلامة الصدر شرًّا .

واعتبر العلم المقطوع عن الله شرًّا .

واعتبر الثراء المصحوب بالإسراف والترف شرًّا .

واعتبر الفقر المصحوب بالكسل والعجز والخمول شرًّا .

واعتبر التقدم التقني الذي يستخدم في قهر البشر والسيطرة عليهم وسلب حقوقهم شرًّا .

كما اعتبر التخلف الذي يحرم أصحابه من الدفاع عن عقيدتهم وكرامتهم شرًّا .

ولابد من تكامل القيم في شخصية الإنسان الخليفة ليكون متوازنا مع نفسه ومع البيئة المحيطة ومفردات الوجود من حوله حتى يتمكن من أداء رسالته في تحقيق الخلافة، وعمارة الأرض، وتشييد الحياة، وإقامة المجتمع الفاضل .

من أجل هذا، فإن الله قد زوده بأساسيات هذا العلم وعرفه أسماء الأشياء وفضله على الملائكة بهذه المعرفة، كما جاء في نص القرآن الكريم :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾[1] .

وعليه بعد ذلك أن ينمي علمه وأن يطور نفسه وأن يستثمر ملكاته... فلايمكن أن تتحقق له الخلافة بكل أبعادها من عمارة الأرض إلى تحقيق العدل إلى إقامة المجتمع الرباني إلا بالعلم .

وجدير به أن يجيب نداء فطرته بمعرفته لمن خلقه واستخلفه في هذه الأرض وأناط به مسئولية عمارتها .

وجدير به أيضا أن يعرف طبيعة الرسالة التي ارتبطت بها مهمته في هذا الوجود .

---

(١) سورة البقرة : (٣٠-٣٣)

كـمـا أنه من الضـروري أن يكون عالما بالمكان الذي استخلف فيـه وهو هذا الكون الكبيـر، وأن يَجِدَّ في البـحث عن آليات تمكنه من السـيادة والسيطرة على هذا الكون والتمكن منه .

وهنا نجد أن القرآن الكريم بعد أن عرف الإنسان بنفسه واستخدم ميدان الذات في تعريف الإنسان ببدايته . انتقل إلى ميدان البيئة المحيطة ليفتح عين الإنسان على مافيها من نعم تشكل بالنسبة له ضرورات الحياة التي لايستطيع أن يعيش دونها . . .

وهذه الضرورات تتمثل في الماء، والزرع، والنار.

والقرآن، لا يستلفت النظر إليها على أنها مقومات الحياة فقط، وإنما يستحدث بأسلوبه المتفرد نوعا من التلاحم بين هذه المقومات وبين التعرف على الخالق الأعظم الذي خلقها وأبدعها . . . ويتخذ منها ـ باعتبارها مفردات في منظومة الطبيعة الحية ـ دليلا على قدرة الله في الخلق والإيجاد . . . وأنه وحده المهيمن والمسيطر على قوانين الوجود وسنن الكون .

وهذه القوانين والسنن لا تشذ بحال من الأحوال عن إرادته لأنه هو الذي خلقها وسيرها . وهذه نقطة أولى في الموضوع .

النقطة الثانية . . أن البيئة المحيطة وماتحتويه من محسوسات يجب أن تكون نافذة يطل منها العقل على عالم آخر غيرمحسوس وهوعالم الغيب . وإطلالة العقل على عالم الغيب ليست استغراقا واندماجا في غيبيات يطول فيها بحثه، ثم لايعود بطائل يذكر لأن طبيعة عالم الغيب فوق إدراكات العقل . . . وإنما هي إطلالة يعرف من خلالها ويتعلم أن الله هومصدر الخير والإبداع كله وأن الإنسان والبيئة المحيطة به والطبيعة من حوله، والكون الواسع العريض كل ذلك صادر عن الله .

وجدير بالإنسان، أن يعرف مَن خالقه وخالق الكون، وأن هذا الخالق هو وحده مصدر الإنسان ومصدر البيئة المحيطة به، والطبيعة الواسعة من حوله، وهو إله جدير بان يُعرف وأن يُذكر وأن يُطاع ...

وكما صدق القرآن ـ كتاب الله ـ في حديثه عن الذات الإنسانية وتحدى، صدق كذلك ويصدق في محيط البيئة والطبيعة والكون العريض، فإذا حدَّث الإنسان عن عالم آخر يسعد فيه الطائعون الناجون ويشقى فيه الكافرون والمنافقون والظالمون فإن حديثه هذا يقوم على صدقه ألف دليل ودليل... وهذه الأدلة الكثيرة تبدأ من داخل نفسه أولا، ومن مقومات الحياة ثانيا، ومن مفردات الطبيعة ومنظومة الكون ثالثا.

وعلى الإنسان أن يكون منطقيا مع نفسه وألا يجحد أو يكابر ... وإلا فإنه مع الله على موعدين: أحدهما قريب لن يطول انتظاره .. ألا وهو الموت ...

فإن كانت مكابرة الإنسان وجحوده عن قوة وعن حق .. فليحم نفسه من هذا الموت ويتأبَّ عليه إن استطاع ...!

وليجمع حوله أهل الأرض جميعا لينقذوه من هذا المصير إن استطاعوا... وذلك تحدٍّ آخر، لايستطيع الجاحدون أو المكذوبون أن يفلتوا منه أو أن ينفكوا عنه إذا جاء الأجل وحل الموعد المضروب للإنسان في علم الله...

وساعتها ستجف حلوق الكذابين والجاحدين والمكابرين وتشخص أبصارهم حيث يتبدى العجز المطلق على كل الوجوه فلا حيلة ولاوسيلة ولامجال:

﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه

منكم ولكن لا تبصرون* فلولا إن كنتم غير مدينين * تَرْجعونها إن كنتم صادقين ﴾[1] .

﴿ كلا إذا بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق ﴾ [2] .

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد* ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد* وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد* لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[3].

وساعتها يتمنى الإنسان أن يُمدَّ له في الأجل وأن يعود ولو ساعة واحدة:

﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموتُ قال رب ارجعون* لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[4].

أما الموعد الآخر .. فهو يومٌ تستقرفيه مصائر البشر جميعا بعد الحشر والحساب، وينعم فيه بجوار الله أولئك الناجحون، الناجون في معركة الحياة من الكفر والنفاق الذين صدَّقوا بوعد الله لهم، وأطاعوا ربهم، وأدوا رسالتهم، ولم يخونوا أو يتخلوا أو يتراجعوا، ولم يفرطوا ولم يهونوا .

---

(١) سورة الواقعة : (٨٣-٨٧).
(٢) سورة القيامة : (٢٦-٣٠).
(٣) سورة ق : (١٩-٢٢).
(٤) سورة المؤمنون : (٩٩-١٠٠).

أما الجاحدون والمكابرون والظالمون فساعتها يكون الستار قد انكشف، وحُصِّل مافي الصدور، والمخبوء قد بان... فيطلب الجاحدون والمكابرون فرصة أخرى لتغيير الأحوال وتوفيق الأوضاع استئنافا لحياة تكون مملوءة بالجدية بدل الهزل .

وبالإيمان بدل الجحود والنكران .

وبالطاعة والامتثال بدل التبجح والغرور والكبرياء ...

لكن الوقت قد فات، وضاع الزور، وانهدم الباطل الذي شيدوه، وذهبت الحاشية، وتخلى الصديق والرفيق والأهل ... وتحدد المصير المشئوم بعد أن ضيعوا بغبائهم وجحودهم فرصة الحياة ... ويقال لهم:

﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم فكنتم بها تكذّبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالّين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قالوا اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين* فاتخذتموهم سخريًا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون* إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون﴾ (١) .

---

(١) سورة المؤمنون : (١٠٥-١١١).

أبعاد مهمة الإنسان في الأرض

ولذا فليس حديث القرآن عن الذات الإنسانية أو عن البيئة المحيطة بالإنسان أو عن مفردات الطبيعة ومنظومة الكون من قبيل حديث المتخصصين في علوم الزراعة أو علوم البيئة أو علوم الطبيعة مثلا...

إنما هو حديث يتخذ من هذه الاشياء وسيلة لغاية أخرى تؤكد مهمة الإنسان في الكون.

بداية بمعرفة الله .

ومرورا بالسيطرة على تلك الطبيعة والتمكن منها .

وانتهاءً بحماية قيم الرشد والحق في هذه الحياة .

ومن هنا كان التركيز المكثف من خلال آيات القرآن الكريم على الذات الإنسانية ومحاولة إيضاح مافيها من أسرار ومعجزات ثم على الطبيعة والكون ومنظومة الوجود .

وتلك آفاق طالب القرآن بارتيادها والتعرف عليها ثم الوصول عن طريقها إلى معرفة مبدعها وخالقها، ولذلك فإن القرآن استخدمها كشواهد للحق في نفوس البشر وفي البيئة المحيطة وفي الكون الواسع الكبير، وحاكم العقل إليها وطالبه باتخاذ موقف جاد بعد أن تتبين الحقيقة، ويعلم من الذي خلقه، ومن أوجده من عدم، وأمده من عُدم، وأفاض عليه بفيض كرمه وعطفه وجَلّى له الحقائق .

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولَم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ [١].

﴿ قتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره* ثم السبيل يسره* ثم أماته فاقبره* ثم إذا شاء أنشره * كلا لما يقض ما أمره ﴾[٢] .

﴿ فلينظر الإنسان ممَّ خُلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب* إنه على رجعه لقادر ﴾ [٣] .

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين* فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقَدَرنا فنعم القادرون ﴾ [٤] .

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنَّا صببنا الماء صبا* ثم شققنا الأرض شقا* فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضبا * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ [٥] .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ [٦] .

﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون* وهو الذي مَدَّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يُغشى الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يُسقى بماء واحد

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .
(٢) سورة عبس : (١٧-٢٣).
(٣) سورة الطارق : (٥-٨).
(٤) سورة المرسلات : (٢٠-٢٣).
(٥) سورة عبس : (٢٤-٣٢).
(٦) سورة الذاريات : (٢٠-٢١).

ونفضل بعضها على بعض في الأُكُل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون* وإن تعجب فعجبٌ قولهم أءذا كنا ترابا أءنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1].

﴿ أولم يروا كيف يُبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تُقْلَبُون ﴾[1] .

نوافذ على عالم الغيب

تلك النصوص كلها بما فيها من ظواهر الكون ومظاهر الإبداع إنما هي نوافذ يطل منها العقل على عالم الغيب من خلال التأمل والتفكر، ثم يعود بزاد جديد يمد القلب بإضافات ودلائل تغذي شجرة الإيمان؛ فيزداد عطاؤه في مجال العمل الصالح، وترتفع ميزانيته في رصيد الإحسان إلى أعلى الدرجات . . .

وكل إضافة يحصل عليها العقل المؤمن هنا إنما هي إضافة جديدة لطاقة الإيمان تزكو بها نفسية المؤمن ويزداد يقينه، ويعلم أن ما بين يديه وما خلفه من نعم الحياة ومقوماتها وضروراتها ومرفهاتها إنما هي هبة من الله الكريم، تُذكر له دائما ويُذكر بها وليًّا للنعم كلها وربًّا للوجود كله بأرضه وسمائه .

---

(١) سورة الرعد: (٢-٥). (٢) سورة العنكبوت : (١٩-٢١) .

﴿ أفرأيتم ما تحرثون* ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكَّهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون* أفرأيتم الماء الذي تشربون * ءأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون* لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التي تورون * ءأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون* نحن جعلناها تذكرةً ومتاعا للمقوين* فسبح باسم ربك العظيم ﴾ [1] .

ومن خلال هذا الرصيد المعرفي والثقافي الضخم تُبنى شخصية المسلم ويؤسَّس يقينه، وسيعرف من هو، ومن أين جاء، وماهو هدفه ورسالته، وإلى أين يذهب . . . ؟

ويتولد في حسه وشعوره قناعة بما يفعل تضفى على نفسيته سكينة الإيمان، فيستوعب أعظم الحقائق من خلال عقيدته في زمن محدود، وتحميه تلك العقيدة من زيغ الأهواء وتناى به عن ضلال الفكر وانحراف السلوك وازدواج الشخصية .

المؤمن الوثاب تعـ ـصمه من الهول السكينة
والخائف الهياب يغـ ـرق وهو في قلب السفينة
إنما الكافر حيرا ن له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كونا تاهت الأكوان فيه

ذلك هو المنظور الإسلامي لمهمة الإنسان على الأرض، فهو ليس مجرد حيوان ناطق، وإنما هو في أعلى مراتب الوجود منزلة ومكانة ورسالة، ولانه

---

(١) سورة الواقعة : (٦٣-٧٤) .

خليفة الله في الارض فهو قدر الله الغالب وقضاؤه الذي لا يرد إن تحققت فيه العبودية لله بشروطها.

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون* ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ (١).

لكن الفهم المغلوط حوَّل مدلول العبادة من إعلاء كلمة الله في كل موقع، والإحساس بحضوره في كل لحظة، واستحضار الجناب الأعلى برعايته وعنايته في كل عمل إلى مجرد صلوات تؤدى وكلمات تقال... وأهملنا جوانب العبادة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والعلمية .. فهبطنا وارتفع عدونا، وسقطنا في بالوعة التخلف وتقدم غيرنا، وعشنا على هامش الحياة وسيطر غيرنا، ومن المستحيل أن يستطيع الإنسان أداء مهمته في الأرض إن كان جاهلا أو متخلفا ويعيشْ عالة على غيره .

---

(١) سورة الذاريات : (٥٦-٥٨) .

فقه الحياة فريضة دينية

لذلك تأتى أهمية الصناعة والزراعة واستجلاب الخبرة التي تساعد البيئة الإسلامية على أن تأكل طعامها من أرضها، وتصنع سلاحها في مصانعها، وتعالج نفسها بدواء صنع في معاملها ومختبراتها لتكتفي ذاتيا وتصبح مستقلة الإرادة مستقلة القرار لا تخضع لضغوط بوقف القروض أو تُهدَّد بمنع المعونات كما تعيش الآن.

وبمنطق الدين تتحول الصناعة والزراعة وإدارة الأموال واستثمار الطاقات إلى فريضة دينية مهمة تعدل الصلاة والصيام والحج.

وكل تفريط فيها أو إهمال لها يعد بلغة القانون خيانة عظمى . كما يعد بالمصطلح الشرعى ردة عملية عن دين الله تحرم المجتمع من النمو والحركة وتساعد أعداءه على النيل من دينه وكرامته .

ولهذا يحتاج تحقيق الخلافة عن الله إلى علم غزير يتعدى حدود أحكام الصلاة والصيام والحج إلى فقه الخلق الذي يعنى بمعرفة السنن الكونية وأسباب الهزائم والانكسارات، ويستقرئ التاريخ في الماضي ويستشرف المستقبل، ويسيطر بأحدث أساليب العلم الحديث على مقدراته، ويستثمر الطاقات الموجودة بأفضل الوسائل والطرق .

ولن يتحقق هذا إلا بإنشاء وتكوين معاهد ومؤسسات علمية جادة تُعنى بالدراسات الاستراتيجية . ويتفرغ لها أصحاب الكفايات من ذوى الاختصاص - وهم بفضل الله كثيرون - ذلك لأن الرؤية الفردية لم تعد قادرة وحدها على مواكبة واستيعاب ما يستجد مع كل يوم في الحياة اليومية .

كما أن عملية اتخاذ القرار نفسها تتطلب أنواعا من المعلومات قد لا تتوافر لفرد بذاته مهما كان ذكيا . وهذا التصور قد أخذت به كل دول العالم المتقدم وأصبحت هذه المؤسسات هي مصدر القرار في تلك الدول.

أما أمتنا وحدها فقد تسلط عليها حكام مستبدون فاسدون لا يرون إلا أنفسهم وينظرون إلى الشعوب كقطيع من الغنم يُورَث ويُوَرَّث .

ويفرض عليه ما يريده الحاكم ولو كان ضد رغبة الشعوب وضد مصالحها، وضد حاضرها ومستقبلها معا .

ولكى تخرج أمتنا من هذا المازق المأساوى، ولكى تبقي مواقفنا مجرد ردود أفعال - لابد من وجود هذه المؤسسات، ليتحقق فقه الحياة بجانب فقه الفرائض .

وهذا الفقه لا تقوم به إلا هذه المؤسسات التي أشرنا إلى ضرورة وجودها لتكثيف عملية الوعى بأحداث الحاضر، ودراسة واستشراف المستقبل على ضوء التطورات التي تحدث كل يوم حتى تستطيع أمتنا أن تعيش عصرها، وفي الوقت نفسه لا تتخلى عن ثوابت دينها وعقيدتها، ولا تفرط في قيمها أبدا، وبذلك تنتهي وتنتفي تلك الثنائية الممقوتة التي شاعت وروج لها العلمانيون كثيرا وهي : إما العقل وإما النقل، إما العلم وإما الدين .

وطبيعي أن الإسلام لا يعرف هذه الثنائية ولا يعترف بوجودها أبدا ذلك لأن الشرط الأساسي في الخلافة عن الله بعد الإيمان به هو العلم.

وهذا العلم بطبيعة الحال لا يتحقق بفرع واحد ولا بتخصص واحد، وإنما لابد فيــه من تكامل العــقل والقلب، وتكامل العلوم المادية والمعنوية، أو النظرية والتطبيقية أو العلوم الإنسانية والتجريبية كما تتكامل القيم في منهج الإسلام الذي هو دين الله الخاتم لكل الرسالات .

الأداء الحضاري المتميز

وهذا التكامل الذي أشرنا إليه يحتاج إلى تخصصات شتى في مجال العلوم الإنسانية المعروفة .

كذلك لابد من العلوم التجريبية أو التطبيقية كالطب، والهندسة، وعلم الكيميـاء، وعلم الدواء، وعلوم الطبيعة، وعلوم الفلك، وعلوم الفضاء، وعلوم الكمبيوتر، وغير ذلك من شتى المعارف المختلفة التي لا تُبنى الحضارات ولا تُؤسس الدول ولا تقوم مجتمعات محترمة بغيرها . . .

وهذه العلوم كلها من أهم شروط الخلافة عن الله ومن مستلزماتها، وبغيرها لن يستطيع المسلم بحال من الأحوال أن يحمي عقيدته أو يحمى عرضه وشرفه، ولن يستطيع أبدا أن يقيم العدل ويحقق بين الناس المساواة ويحفظ كرامة الإنسان .

لكل هذه الأسباب وجب على المسلم « خليفة الله في الأرض أن يكون متميزا في عقيدته، وهذا التميز لا يحدث إلا إذا انطلق في ممارسات الحياة والسلوكيات اليومية من خلال توجيهات تلك العقيدة، لذلك يجب أن يكون لها في عقله ووجدانه وممارساته الأولوية المطلقة، ولها في حسه ومشاعره كل الولاء .

كما يجب أن يتميز في أخلاقه العامة بالعفة، والذكاء، وحسن المعاشرة مع الآخرين، والصدق والامانة، والاداء الوظيفي العالي، والإبداع المتواصل، والإضافة المستمرة كلما أمكن.

فإذا نظر الآخرون إليه وجدوا في شخصيته صورة المسلم القوي، الخبير في شئون تخصصه، الوفي بوعوده وعهوده، الذكي في فكره وثقافته، المتزن في خطواته كلها... الذي يضيف إلى الحياة ولا ينقص منها، ويعمر ولا يخرب.

حينئذ يستطيع أن يؤدي رسالته ويسمع منه الآخرون، لانه بهذا التميز سيكون قدوة ومحل تأثير ومصدر إشعاع علمي وأخلاقي ... تلك هي مستلزمات الخلافة التي تصنع المؤمن القوي، فالدنيا لا تسمع من الضعفاء، ولا تستجيب للمهازيل المهمّشين على سطح الحياة الذين يأخذون من غيرهم ولا ينتجون ....

وينفعلون ولا يفعلون ....

ويتأثرون ولا يؤثرون ....

ويستقبلون فقط ولا يرسلون .

معرفة الكون من روافد الإيمان

والمتتبع لنصوص القرآن الكريم يجد أنه قد ربط بين الإيمان الحقيقي وبين معرفة الكون بكل أبعاده وأسراره ومافيه من طاقات، ولذلك فإن القرآن الكريم قد حدَّث الإنسان الخليفة عن السماء والأرض والبحار والأنهار والأشجار وأنواع الزرع والثمر والجبال والسهول والوديان وغير ذلك، وطالبه بالنظر والتعرف على مفردات الوجود أرضا وسماء .

فتلك مملكته وعليه أن يتعرف حدودها وخصائصها ومافيها ومن فيها، وكل ذلك لا يتم أصلا إلا بالعلم .

ومن المعروف أن وسيلة العلم الأولى هي القراءة، فهي سبيل المعرفة ووسيلة الاطلاع على المعلومات ، وقد بدأ بها الوحى تحديدا في القرآن الكريم ... فالإسلام دينٌ معجزتُه كتابٌ، والكلمة الأولى فيه «اقرأ» .

وهذه البداية دلالة على أن أول مؤهلات الخلافة هي المعرفة والعلم وفي مقدمة ما يجب أن يعرفه المرء وأن يتعلمه هو العلم بالله، والتعرف عليه من خلال آثار الإبداع الإلهي في هذا الوجود، بداية بالإنسان نفسه وما في داخله من معجزات، ومرورا بالبيئة المحيطة به وما فيها وما تحتويه من عناصر الحياة والحركة والنمو، وما لها من تأثيرات وتفاعلات على بعضها البعض، ثم على الإنسان نفسه ...

والحقيقة أن الأمية والجهل وضيق الأفق لايمكن أن يتربى فيها إيمان صحيح، كما أن مثل هذه البيئة لايمكن أن تكون مرآة عاكسة لمبادئ الإسلام وقيمه . والعكس صحيح أيضا ... ففاقد الشيء لا يعطيه، فلايمكن للجاهل به أن يصونه ويحميه .

الإطار الأخلاقي للعلم

ولما كانت القراءة والمعرفة هي المنطلق الاساسي في بناء الإنسان العظيم، كانت الكلمات الأولى في الوحي الكريم تعظيما لقيمة العلم وإشادة بطلابه والباحثين عنه، شريطة الا يُسخَّر العلم لخدمة الشهوات . وألا يُستغَل في البطش والقهر وتدمير الحياة ، وألا يستبد الغرور بأصحابه .

والا يستغلونه في شهوات الاستعلاء والاحتكار وفرض إرادة الغالب على المغلوب، والقوي على الضعيف، والغني على الفقير .

وهذه الضمانات لا تتحقق أصلا إلا إذا التزم الإنسان بالمنهج الأخلاقي أو بإطار القيم القرآنية الذي تمليه عليه عقيدته .

ولقد التفت شاعر النيل حافظ إبراهيم [1] إلى هذه الحقيقة حين قال :

لاتحسبن العلم ينفع وحده ... مالم يتوج ربه بخلاق

فالناس هذا حظه مال وذا ... علم وذاك مكارم الأخلاق

فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

فإذا تحقق هذا الإطار القرآني الأخلاقي في التعامل مع الحياة بميادينها المختلفة تحول الإنسان الخليفة إلى عابد لله في المصنع والمعمل والديوان والحقل وفي البر والبحر والفضاء، وعلى قمم الجبال وفي عمق المناجم، وفي سفوح الوديان .

وتحولت أعماله كلها وأقواله كلها وممارساته كلها إلى هتاف بمجد الله

---

(١) هو حافظ إبراهيم (١٨٧١-١٩٣٢) لقب بشاعر النيل . ولد في مدينة ديروط بصعيد مصر. تربى يتيما حيث توفي أبوه وهو في الرابعة من عمره . دخل المدرسة الحربية بمصر، وعين ضابطا في السودان واشترك في حركة التمرد ضد الإنجليز وأحيل إلى الاستيداع وعاد إلى القاهرة . ساهم في التعبيرعن الطبقات الشعبية خلال الأحداث بشعره السياسى والاجتماعى . ديوانه الشعرى طبع في حياته في ثلاثة أجزاء صغيرة ثم طبع بعد وفاته شاملا لكل أشعاره التي لم تنشر في الطبعة الأولي .
له كتاب نثري بعنوان ليالي سطيح ألف على طريقة المقامات . انظر الموسوعة العربية الميسرة ج١ ص ٦٨٥ .

في السموات والأرض، وتسبيح بحمده يمتلئ به الأفق وتحتشد له مفردات الوجود، ويستجيب لصداه كل شيء في السموات والأرض.

ويصعد الخليفة بهذا العمل الجاد إلى عالم ينال فيه شرف صحبة المولى العظيم والملائكة الكرام حين يشهدون لله بالوحدانية والعدالة المطلقة.

﴿ شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١).

وأولو العلم هنا ليسوا بالضرورة أن يكونوا علماء الشريعة فقط، أو أهل العلم الديني، وإنما هم أهل العلم من كل فن وتخصص إذا صدقت نواياهم وارتبطت توجهاتهم بالله، وأقدموا على العلم فهما وتحليلا واستنباطا باسم الله أولا .

ورفعا لرايته ثانيا .

وخدمة لعباده ثالثا.

وتعميرا للأرض وترقية للحياة رابعا.

استجابة لأمر الله بتحقيق الخلافة وعمارة الأرض وبناء الحياة النظيفة للأمم والمجتمعات وتيسير سبلها للأفراد والجماعات.

فإذا ارتبط العلم والعالم بهذه النية كان السعي إليه والجهد الذي يبذل فيه جهادا يمكّن الإنسان الخليفة من أن يعيش كريما مصون الجانب مرفوع الرأس في هذه الدنيا، كما أن صاحبه يُعَد في موازين الله من المجاهدين المخلصين الذين يحسب سعيهم تسبيحا وخطواتهم عبادة، وسكونهم صلاة

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

ومناجاة. وهذا مانبه إليه الرسول العظيم ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قال :
« من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »[1]

« فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم »

« إن الله عز وجل وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على مُعلِّم الناس الخير »[2] .

ولاشك أن الإنسان كلما زاد علمه كلما زادت معرفته بالله، وزاد معها خوفه منه وخشيته له، وزاد كذلك حبه لله وارتباطه به، وتعرفه على جوانب العظمة والجلال والكمال في الله صاحب العظمة والجمال والجلال والكمال.

لذلك ينبه القرآن الكريم إلى موقف أهل العلم من قضية الإيمان في مقابل المترددين الشاكّين الذين تتسم أحكامهم بالظنون والأوهام، ولايستندون إلى الحقائق .

﴿ وقرآنا فَرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾[3] .

﴿ والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا ومايذَّكر إلا أولو الألباب ﴾[4].

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته مجلد ٥ ص ٣٠٢ تحقيق ناصر الألباني .
(٢) المرجع السابق مجلد ٤٤ ص ٨٦ .
(٣) سورة الإسراء : (١٠٦-١٠٩) .
(٤) سورة آل عمران : ٧ .

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتُخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (١)

﴿ ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون * الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون* وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين* أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٢) .

وعلى ضوء من هذه النصوص فَهِمَ السلف الصالح ارتباط الإيمان بالعلم، فانطلقوا في دنياهم يرفعون كلمة الله في كل موقع، ويعلون شارات التوحيد والهداية في كل ميدان، ويسخرون طاقات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية -بالعلم والتخطيط والنظام والعمل الدءوب - لخدمة دينهم ورسالتهم . . .

ولم يفصلوا في مدلول العبادة لديهم بين دين ودنيا، ولابين مسجد ومصنع، ولابين محراب ومعمل... فكلها تصب - مع النية الخالصة وشرف القصد - في مجرى واحد هو تحقيق الخلافة عن الله في الارض بعمارتها، والتمكين فيها، والتعرف على أسرارها واستخراج خيراتها، والسيطرة عليها باسم الله.

لذلك يقول عبد الله بن مسعود: الدراسة صلاة .

ويقول أبو الدرداء : مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليل، ومن رأى الغدو والرواح إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه.

---

(١) سورة الحج : ٥٤ .
(٢) سورة القصص : (٥١ - ٥٤).

ويقول ابن عباس : تذاكر العلم بعض ليلة خير وأحب إليَّ من إحيائها .

ويقول سفيان الثوري : ليس بعد الفرائض أفضل من طلب العلم . . .

قيل له : ليس لهم فيه نية . قال : طلبهم له نية .

وقال سفيان بن عيينة : من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل .

وبهذا التوجه الثقافي العلمي الصحيح سادت قيم الإسلام وانتشرت تعاليمه، وتغيرت به مجتمعات، وبنيت به حضارات، وفتحت به بلدان شتى، وتحرر الناس وانعتقوا من رق الجاهلية وعبودية الجهل والعجز والتخلف . . . فكان المسلم لهم منارة علم، ومصدر ثقافة وتوجيه، ونموذجا يقتدى به وتُقْتَفى آثاره .

وهذا ماأشار إليه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال حين قال :

إن هذا العصر ليل فائر — أيها المسلم ليل الحائرين
وسفين الحق في لج الهوى — لايراها غير ربان السفين
انت كنز الدر والياقوت في — موجة الدنيا وإن لم يعرفوك
محفل الأجيال محتاج إلى — صوتك العالى وإن لم يسمعوك

مناخ النهضة

ومن هذا المنطلق وعلى ضوئه يجب أن تبدأ نهضة المجتمع المسلم في العصر الحديث، وذلك بتهيئة المناخ العقلي والنفسي والاجتماعي الذي يحتضن العلم والعلماء من كل تخصص ولا يفرط في جهد عقلي أو يُضيِّع عالما .

وذلك لا يتم إلا بالتخطيط لبرنامج يحقق الابعاد الإيجابية ويتضمن خطة عمل تنفذ على مستوى الدولة والمؤسسات المتخصصة للجامعيين والمجمعيين .

ويمكن أن نضع لها خطوطا عريضة وأن نرسم لها ملامح عامة في تلك العجالة تتمثل فيما يأتى :

١- رعاية العلماء وتمكينهم من البحث والدراسة وتهيئة الظروف الملائمة حتى يتفرغوا لإجادة فنون تخصصاتهم بدلا من إدخالهم إلى محاور الصراعات السياسية أو الحزبية التي تأكل الجهد والطاقة وتستنزف في العقول ملكات الإبداع والإنجاز .

٢- رعاية النوابغ من طلاب المراحل المختلفة وملاحظة أنشطتهم وتنمية مواهبهم وتوجيههم في مجال الدراسة لاستثمار تلك الطاقات بشكل يتوافق مع ملكاتهم وهوايتهم .

٣- استثمار عنصر الزمن واستثمار الوقت لعمارة الأرض وخدمة البيئة والمساهمة في تطورها وسد احتياجاتها وخصوصا في مجال الزراعة والحرف والصناعات.

٤- استثمار عنصر المواد الخام عن طريق التخطيط المنظم وتوظيف طاقات الشباب في الإنجاز .

٥- استخدام المال وتحويله من مجرد أرصدة جامدة إلى وسائل إنتاج، وتشجيع الراغبين في بناء المزارع والمصانع والمعامل التي تسد احتياجات المجتمع وتحرر إرادته وتدفع به إلى الاستقلال والاكتفاء الذاتي، ومن ثم حماية ذاته أولا وتحرر إرادته من ضغط القروض والمعونات ثانيا .

٦- التأكيد على ملامح الهوية، وحماية القسمات العامة للمجتمع، وتقوية الروابط بين الثقافة السائدة والجذور الحضارية وبين رسالة الأمة وهدفها العظيم، وذلك عن طريق الربط بين الأصالة والتحديث، والتراث والمعاصرة .

٧- التأكيد على حماية ثوابت العقيدة وثوابت المنهج الإسلامي باعتبارها الصيغة الرسمية التي ارتضتها الأمة نظاما وإطارا مرجعيا لحركتها وسلوكها، ودونتها في دستورها، ومن ثم لايجب أن يسمح بأي تجاوز فكري أو ثقافي يتعدى بالتجريح أو الغمز أو اللمز على هذه الثوابت تحت دعوى حرية الفكر أو حرية التعبير...

٨- التواصل الدائم والحوار المتكافئ مع ثقافة الآخرين وحضارتهم بقصد التعرف على جوانب الخير والشر ومعرفة مواطن القوة والضعف والإيجابيات والسلبيات لدى الآخرين، حتى نتمكن من معرفة أفضل

الطرق والوسائل للتعامل معهم وتحقيق الاستفادة والانتفاع بما يصلون إليه من تطور وتقدم بعد الفحص والفرز والغربلة والتمحيص.

إذ ليس كل مالديهم ضارا وهداما أو رجسا من عمل الشيطان، فقد علّمنا ديننا ان الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها...

وكم كانت نصوص القرآن رائعة حين جعلت من سمات وصفات المؤمنين أصحاب العقول لا ينغلقون على أنفسهم، ولا يحبسون عقولهم في معتقل للأفكار والثقافة، محدود الرؤية، محدود الإدراك وبالتالي محدود الحضور ومحدود التأثير إن كان له تأثير أصلا.

وإنما فتحت عيونهم وبصائرهم وأسماعهم على الحقيقة حيثما كانت، وعليهم في سبيل الوصول إليها أن يستمعوا ويستوعبوا ويتأملوا ويفكروا ثم يختاروا أحسن مايقال فيتبعونه ويطبقونه.

﴿ فبشر عبادِ * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾[1] .

فمعرفة الآخر، ومعرفة ثقافته، ومعرفة نمط القيم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من العوامل المؤثرة في شخصيته، والدوافع الباعثة على الفعل في إرادته، ومعرفة الملامح العامة للقيم التي تحكم تصرفاته، كل هذا يدخل في باب فقه الخلق الذي أُمرنا بتعلمه والتفقه فيه، لأنه يساعدنا بالطبع على التعامل مع الآخرين، ويهيئنا بأفضل الأساليب، كما يمدنا بأهم الآليات التي نفهم بها شخصيته ونفسيته.

---

(١) سورة الزمر : (١٧-١٨) .

ولايمكننا - إلا بهذه المعرفة الشاملة - التعامل معه بنجاح سواء في السلم أو في الحرب، في الدعوة والبلاغ، أو في مجالات التعاون الاقتصادي المتعددة، ومن ثم لا يمكننا القبول بالقول الذي يدعو إلى العزلة التامة عن الآخرين لسببين:

أولا : لانه غير ممكن عمليا مع تقدم وسائل الاتصالات والاقمار الصناعية والإنترنيت وغير ذلك من الوسائل التي اخترقت الحدود والحواجز، ودخلت إلى البيوت وتسللت إلى العقول والنفوس، وحولت العالم الكبير إلى قرية صغيرة يمكن تعميم الفكرة أو توصيل الخبر أو بث المعلومة إليه في دقائق معدودات.

وثانيا: لان هذا القول يحرمنا فرصة التبصر والإدراك لما يجري حولنا من أحداث وتفاعلات تؤثر بالطبع فينا إيجابا وسلبا، شئنا أو أبينا .

والحل : ان نتحصن وأن نحصن أجيالنا .

وان نقوي أجهزة المناعة الثقافية والعلمية لدى مجتمعاتنا، وفي مقدمة ما يجب ان نقوم به ان نعيد للمسجد دوره في التأثير والفاعلية وأن تؤدي المؤسسات الدينية وظيفتها ورسالتها الحقيقية بدلا من ان تُجَيَّر لصالح الحكام، وتتحول فقط إلى مجرد شبح مجفف لا روح فيه ولادور له إلا مجرد إرسال برقيات التهنئة والتأييد للحاكم في المناسبات أو مجرد رؤية الهلال في كل عام وانتهي الأمر.

وإنما لابد من الدخول إلى مجال صياغة الرأي العام .

وأن ننافس الآخرين بتقديم الثقافات الجادة والمرفهات التي تنمي الوجدان والعقول ولا تضر العقائد والأخلاق.

٩- ضرورة الفهم الواعي لدور الإعلام في صياغة العقول والقلوب، وصياغة الوجدان العام للأمة، ولابد للإعلام من أن يعمل جنبا إلى جنب مع مناهج التعليم والتربية في حماية العقيدة وتطهير النفوس وتزكيتها وتربيتها على القيم الإيجابية التي تحقق نمو المجتمع وتطوره وتحاصر نوازع الشر في الإنسان .

١٠- ضرورة الفهم الواعي لدور التكنولوجيا الحديثة في صناعة وتقدم المجتمع وتوفير الرفاهية للإنسان مع التركيز الشديد على توضيح مفهوم الرفاهية، حيث يأخذ أحيانا أبعادا ضارة في بعض المجتمعات تصل إلى حد السفه أو الإسراف الممقوت. مما يؤدي إلى زوال النعم والحرمان منها بسبب سوء استعمالها واستغلالها في إطفاء الشهوات وتلبية النزوات، الأمر الذي جعل القرآن الكريم يطلق عليه مصطلح كفران النعمة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار* وجعلوا لله أندادا ليُضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ [١].

ولقد رأينا آثار التكنولوجيا على مجتمعات الغرب حين تخلت عن الضوابط الأخلاقية فيما يجوز وما لا يجوز، فكانت النتيجة أن قدمت التكنولوجيا للإنسان الرفاهية، ووفرت له الراحة، واختصرت له المسافات، واختزلت له الزمن، ولكنها أيضا اختزنت في مخازن السلاح لكل إنسان على وجه الأرض ما يعادل ثمانية أطنان من المتفجرات في مخازن الأسلحة شرقا وغربا، كما أنها عجزت أن تقدم له السعادة وطمأنينة النفس وسكينة

---

(١) سورة إبراهيم : (٢٨-٣٠) .

القلب وهدوء الاعصاب، ولم تستطع تلك التكنولوچيا بكل منجزاتها أن تضفي عليه الإحساس بالأمن، ولا أن تروي ظمأ الروح والوجدان إليه.

لأن ذلك كله لا يتحقق إلا من خلال الهداية التي تحملها شريعة الله وتقدمها للناس منهجا يحقق أمنهم واستقرارهم.

فإذا امتزجت تلك الشريعة بمنجزات التكنولوجيا والتقنية الحديثة، فإنها قطعا تصنع المجتمع السعيد الذي يكفل لأفراده القوة والتفوق، ويضمن لهم النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ولهذا يقول الشاعر:

كــلا ولا ترقى المعـــارج أمـــة ترجـو سـيـادتهـا بجـهـل مطبق
الدين والدنيـا إذا اجـتـمعـا معًا هتـفـا بخـيـرات المدائن أغـدقي

وهذا بدوره يحتم على الإنسان المسلم - خليفة الله في الأرض - استجابة لنداء التكليف، أمورا أهمها:

الا يغيب عن الساحة.

وأن ينزل إلى الميدان.

وأن يقدم البديل الإسلامي لمشكلات الحياة.

الا تفصله أو تخلعه مواكبة العصر وقبول التحدي عن هويته وولائه، وإلا تعرضت شخصيته للذوبان وضياع الذات.

ولا يستطيع أن يحقق ذلك إلا إذا تسلح بالمعايير الصحيحة من خلال الوحي المعصوم في الصواب والخطإ، والحلال والحرام، لأن هذه المعايير هي التي تضمن الموقف الصحيح في القبول والرفض، وتمد مناعته الثقافية والفكرية بوسائل هضم ثقافة الآخرين دون الخوف منها أو الذوبان فيها.

ونعود مرة أخرى لنؤكد : أن هذا ما نجح فيه السلف الصالح ببراعة شديدة وقدرة هائلة مكنتهم من إدارة حركة الصراع لتكون في صالحهم وفي الاتجاه الصحيح بعد أن استوعبوا ثقافة عصرهم واستجابوا للتحديات، ثم فرضوا أنفسهم وإرادتهم وغيروا واقع العالم بمنطلقات إسلامية .

بينما فشلت فيه الأجيال المعاصرة نتيجة لعوامل مختلفة ومفاهيم مغلوطة جعلتها تنأى عن دينها الحقيقى وتمارس أنواعا من التدين المغلوط الذي غيب العقل وغيب الإرادة، فغاب المسلم عن واقعه وتركه للآخرين ليشكلوه وفق ما يريدون .

وهذا الواقع المتردى يذكرنا بقول الشاعر :

ورثنا المجـــد عن آباء خــيـــر   أســأنا في ديارهم الصنيــعــا
إذا الشـــرف الرفـــيع توارثـتـــه   بناة السـوء أوشك أن يضـيـعـا

وبهذا فَقَدَ المسلم شرط الخلافة عن الله، ومن ثم فقد أهليته لقيادة الحياة وتغيير حركة المجتمعات وإدارة الأزمات والصراعات التي تسيطر عليه وتسود الجو من حوله.

ولا علاج إلا بإعادة تشكيل الإنسان من جديد وذلك من خلال المنهج

الإسلامي القادر على استيعاب حركة الحياة والمجتمعات في أبعادها كلها (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلمية والادبية).

ولانه المنهج الذي يتفرد ببناء العقل وتربية النفس وتزكية الوجدان والمشاعر والاحاسيس بأسلوب يخلق التوازن النفسي في الإنسان ولا يطغى فيه جانب على جانب.

كما أنه المنهج الوحيد الذي يوجه الطاقات النفسية والعقلية والمادية والروحية لإسعاد البشر وتحقيق السمو الاخلاقي والارتفاع بهم عن مصاف الحيوان الذي لا يهتم إلا بالغرائز الدنيا .

حيث ينحصر نشاطه في مجال المادة ويغيب عن مجال الروح ويهتم بالعالم المحسوس ولا يضع اعتبارا في حساباته لعالم الغيب.

لذلك لا يعرف الإنسان فيه :

مَن هو ...؟!

ولا، من أين جاء ... ؟!

ولا، لماذا جاء ...؟!

ولا، إلى أين المصير...؟!

أما المنهج الإسلامي، فيلبي حاجات العقل بالإجابة عن هذه التساؤلات، ويستخدم في إقناعه الدليل والحجة من داخل نفسه ثم من البيئة المحيطة حوله، ويقول للبشر:

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أوَلم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ (١) .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

﴿وفي الأرض آيات للموقنين* وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1] .

المصير.. إلى أين؟؟

وبعد أن عرف الإنسان من هو ...

ومن أين جاء ... وماهي مهمته في هذا الوجود...

بقي السؤال الرابع ... إلى أين المصير...؟

ترى هل ستنتهي الحياة ... وينفض السامر.. ويغيب من مات تحت الأرض.. وينتهي الأمر...؟

أم ستبقى دورة الحياة والموت كالمتواليات الرياضية أرحام تدفع وأرض تبلع إلى ما لا نهاية...؟!

وهؤلاء الذين ذهبوا تحت الثرى من ملايين السنين، تُرى هل انتهى وجودهم بالفناء المطلق؟ أم بدءوا دورة حياة أخرى في عالم آخر من عوالم الأحياء ...؟

ربما نعرفه وربما لا نعرفه...؟

تلك تساؤلات تبنتها فلسفات مادية قديما وحديثا، وطرحتها العقول على نفسها، وحاولت الإجابة عنها بطرق شتى، لكنها لم تستطع أن تقيم الدليل على صدقها، ولم تقدم للإنسان إجابة شافية عن المستقبل والمصير...

---

(١) سورة الذاريات : (٢٠-٢١) .

مما جعل البعض يرفض مجرد التفكير في هذه القضية ويحاول الهروب منها، ويكتفي من حياته بمجرد اللحظة الآنية التي يعيشها الآن، ولا يشغل فكره وعقله بهذه القضية وما يدور حولها من جدال...

وقد تبنى عمر الخيام هذا الموقف في مرحلة من حياته، ثم رجع عنه فيما بعد ...

فهو يقول :

لا توحش النفس بخوف الظنون   واغنم من الحاضر أمن اليقين
فقد تساوى في الثرى راحل   غدا وماضٍ من ألوف السنين

فالكل في نظره يموتون، وعلى الإنسان أن يعيش لحظته، وألا يفكر فيما عداها.

والحقيقة أن هذه النظرة تتسم بالقصور الشديد لأنها تحصر الإنسان في نطاق ضيق، وتفوت عليه فرصة الطموح في مستقبل أفضل، كما أن من تداعياتها وآثارها إذا آمن الإنسان بها أن يعيش بلا ضوابط، ولا قوانين، ولا رقيب.

ولنا أن نتصور حياة بهذا الشكل... كيف تستقيم...؟ ومن يكون له فيها حق الحياة غير الأقوياء ؟...

إنها ستكون غابة. وإذا كان البشر يفعلون فيما بينهم ما لا تفعله الوحوش في الغابة مع إيمان البعض بالبعث والجزاء بعد الموت؟

فكيف بهم إن ضاع منهم هذا الإيمان؟

وكيف يكون شكل العدالة ؟

وهناك أيضا من تبَنَّوْا فلسفة الدهريين قديما... فآمنوا بها وكفروا بما عداها... وهي فلسفة تقوم على عبادة الحياة، وعلى أن الدهر يدور، وأن الأرحام تدفع بالأحياء، والأرض تبتلع الأموات، ولا إله ولا مدبر... وهكذا...

فإنكار البعث ليس فلسفة جديدة، وإنما كان حديث الصغار حتى في القرون الأولى .

وهذه الفلسفة وإن سُمي أصحابها بالدهريين قديما إلا أن فكرتها وفكرها يسيطران على الكثيرين من أبناء الحضارة الحديثة حتى في القرن العشرين، وترتدى أحيانا ثوب العلم لتغطي به عوراتها النفسية والفكرية .

وهي فلسفة تفتقد اليقين في أهم القضايا التي يحتاج فيها الإنسان إلى اليقين لتتوازن حياته وتستقيم ...

كما أنها تفتقد البرهان العلمي في دعواها ... لأنها وإن آمنت بوجودها إلا أنها لا تعرف كيف بدأ هذا الوجود؟...

ولا متى سينتهي؟ وكيف تكون النهاية ؟... ويبقى بعد ذلك لغز الحياة بلا حل...

لذلك فقد رصد القرآن هذه الفلسفة ورد على أصحابها الذين قالوا:

﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ومالهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ (١).

وهؤلاء قديما وحديثا بنوا مواقفهم من أهم قضايا المصير على ظنون وأوهام، فهم يواجهون الحقائق بحجج واهية، وهم أمام الأدلة الكثيرة في

---

(١) سورة الجاثية : ٢٤

النفس والآفاق وأمام عمليات الإماتة والإحياء في كل لحظة من الليل أو النهار يحتجون بحيلة تفتقد الموضوعية، ويريدون أن تُخرق لهم قوانين الوجود، وأن تُحيى لهم الموتى ويريدون أن يروا الآباء الذين ماتوا يُردُّون إلى الحياة ويمشون في الأرض متحركين.

﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين* قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١).

المنكرون والتحدي العظيم

والقرآن الكريم حين يقرر هذه الحقيقة - حقيقة البعث بعد الموت - يستخدم بداية الحياة في النشأة الاولى دليلا على النشأة الآخرة، ويربط بين البداية والنهاية في قضية الخلق، وما بين البداية والنهاية يأتى بفكرة المتشككين...

ويضعهم أمام حقيقة لا مفر منها ولا محيد عنها، إنها حقيقة الموت الذي يأتى بسبب وبغير سبب، ولا يستطيع بشر كائنًا من كان أن يعصم نفسه من هذا الموت أو يتأبى عليه...

وأنه قدرمن قدر الله وحده لا يسبقه أحد، ولا يعصم منه أحد، وتتلخص قصة الحياة في كلمات قليلة ترد الإنسان إلى حجمه الحقيقى، وتحاكم النفس إلى ذاتها في لحظات الوداع الاخير لهذه الحياة حين يحيط

---

(١) سورة الجاثية: (٢٥-٢٦).

العجز بالإنسان من كل جانب، ويتسلل إليه من كل مدخل، ولا يجد حيلة أو وسيلة يدفع بها عن نفسه هذا القدر المقدور حين يأتي الأجل المحدود...

﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ﴾ (١) .

ويسوق القرآن الكريم دليله المفعم على صدق البداية ومصدرها.

إن هذا الدليل هو الآيات نفسها التي تناولت قضية البداية والنهاية .

﴿ أفرأيتم ما تمنون* ءأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون*نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين*على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾(٢) .

هذا هو الموت... هل يستطيع أحد أن يرده عن أحد، أو يرده حتى عن نفسه...؟

وجدير بهذا التحدي المعجز أن يجعل الإنسان مستعدا للقاء الله بعدما تبين له الحق، ووضحت أمامه معالم الحقيقة ...لكن الإنسان يكابر ويجادل ويخاصم!

وكثيرا مانجد من أبناء الحضارة الحديثة من يعيش ليومه فقط ولا يفكر فيما بعد الحياة، وقد يشك ويشكك، لذلك عرض القرآن في السياق نفسه مراحل الحياة من البدء إلي المنتهي..

﴿ يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ﴾(٣).

---

(١) سورة الواقعة : ٥٧ .
(٢) سورة الواقعة : (٥٨-٦١).
(٣) سورة الحج : ٥ .

لنبين لكم قدرتنا في الخلق والإيجاد والتغيير والتبديل والتحويل . .

﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفي ومنكم من يُردُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [١].

العالم الآخر أبدي المعالم والقسمات

تلك صورة الحياة في الإنسان والنبات يشتركان فيها من حيث المصدر . . . فالأرض هي الأساس . . . وقدرة الله تخلق منها هذا الإنسان السوي المعاند المكابر . . .

وهذه هي مراحل حياته في هذه الدنيا بداية من التراب ومروراً بمراحل التخليق المختلفة حين كان نطفة في ظهر الأب .

ثم جنينا في رحم الأم .

ثم طفلا صغيرا عاجزا يستقبل الدنيا لأول مرة .

ثم بالغا رشيدا قويا يملأ الدنيا بالضجيج والحركة، والفساد والعناد أحيانا .

ثم شيخا يبلغ من العمر أرذله ويعجز عن تلبية كل احتياجاته، حيث ينحنى الظهر، ويشيب الشعر، ويضعف السمع والبصر، وتقل الحركة، وتنحسر الذاكرة، ويتداخل فيها الحاضر والماضي، وتختلط الأشياء .

---

(١) سورة الحج : ٥

ثم يأتي الأجل المحتوم بالموت، فيستر هذا الضعف ويواري هذا العجز، ويدخل بالإنسان في مرحلة أخرى من الوجود، وفي عالم آخر أبدي المعالم أبدي القسمات . . .

وهذه المراحل كلها في الخلق والتكوين كان يجب أن تكون دليلا في النفس والعقل . . . لكن لما كان الإنسان ينسى . . . وكان الإلف يفقده الإحساس بالنعمة في كثير من الأحيان لذلك ضرب القرآن مثلا وساق أمام عينيه نموذجا محسوسا يراه كل يوم . . .

إنه هذه الأرض الميتة الهامدة . . . كيف يخرج منها هذا النبات . . .؟

وكيف تتوزع عليها ألوان الطعوم والألوان والرائحة، ومن وزعها . . .؟

وكيف يتضمن ويحتوي أغلب المواد النشوية والسكرية والبروتينية . . .؟

وفي أي مصنع تكونت . . .؟

إنها يد القدرة التي تبدع الحياة، وتحي الأموات، وتميت الأحياء، وتبعثهم مرة أخرى . .

﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يُحي الموتى وأنه على كل شيء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[1].

---

(١) سورة الحج : (٥-٧).

وتجاه هذا الموقف المتعدد الجوانب في الخلق والإيجاد يقف العقل مذهولا أمام روعة القدرة الإلهية فيما تريد فعله وإنجازه في هذا الوجود، وانها قدرة مبدعة بغير حدود، لا يعجزها شيء، ولا يقف في سبيلها حائل.

لذلك يتحدث القرآن الكريم في موضع آخر عن مراحل الوجود هذه نفسها من لحظة البداية إلى لحظة النهاية .

لكنه يختم الحديث بإثارة التعقل في العقل الخامل الساكن وحثه على الاستيعاب، والوصول إلى النتيجة الحتمية بالتسليم المطلق لصاحب هذه القدرة، والتصديق المطلق لكل ما يقول . فخالق الخلق بداية هو الذي يعيدهم ويبعثهم للحساب والجزاء مرة أخرى ...

﴿هو الذي خلقكم من تراب
ثم من نطفة
ثم من علقة
ثم يخرجكم طفلا
ثم لتبلغوا أشدكم
ثم لتكونوا شيوخا
ومنكم من يُتَوَفَّى من قبل
ولتبلغوا أجلا مسمى
ولعلكم تعقلون﴾ [١] .

---

(١) سورة غافر : ٦٧ .

فكان إنكار البعث بعد كل هذه الأدلة ضرب من ضروب الخبل والجنون.

ونوع من انتحار الفكر، وانتحال العلل الواهية في الإنكار والجحود...

كما أنه تجاوز للحقيقة بالعدوان عليها، وإهمال للعقل، وإهدار لقيمة المعرفة في ذاتها ....

لذلك ختم النص الكريم بهذا الترجي ﴿ **ولعلكم تعقلون** ﴾ .

ثم يعود القرآن الكريم ليؤكد تفرد القدرة الإلهية في الخلق والإبداع وأنها وحدها التي قامت بكل هذه المراحل وأن صاحب هذه القدرة هو وحده قيوم السموات والأرض والقائم على كل نفس بما كسبت وأن عمليات الخلق والإيجاد والإماتة والإحياء لاتتم إلا بأمره هو وبإرادته هو ﴿ **هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون** ﴾[١].

وحيال مظاهر القدرة الإلهية في الإحياء والإماتة، وفي النفس وفي الكون المحيط، وفي الوجود بأسره يستلفت القرآن الكريم نظر الإنسان - حتى لا يضل الطريق ويفقد صواب الرؤية وتضيع منه الحقائق - إلى أن

---

(١) سورة غافر : ٦٨

موقف الجحود لايفيد، وأن الجدل المعاند لن يجد فى نهاية المطاف حجة يستند إليها ، ولادليلا يعتمد عليه ، إنه لن يجد غير السراب ، وأن أصحابه سيكونون في موقف الخزي والعار بإنكارهم لحتمية البعث بعد كل هذه الأدلة... ويستحضر القرآن صورة من صور المستقبل يتضح فيها موقف الجاحدين المنكرين وتأمل معي هذه الصورة :

﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون* الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون* في الحميم ثم في النار يُسْجَرون* ثم قيل لهم أين ماكنتم تشركون* من دون الله قالوا ضلوا عنا..﴾ [1] .

---

(١) سورة غافر : (٦٩-٧٤).

عندما تخرس الألسنة ويتلاشى الضلال

وهكذا في هذا الموقف يذوب الضلال، ويتلاشى جدال طويل، وتخرس ألسنة طالما تعدت وتجاوزت بالسخرية والكلمة النابية حينا، وبالإنكار والجحود حينا آخر، وبالتطاول على المؤمنين في أحيان كثيرة .

هكذا يُعلي الصغار وجوههم، وتنكسر قامات كان الكبر يرفعها، والغرور يغذيها، والإمهال ينميها، وتنحنى جباه كانت في الدنيا تظن أن مفاتح الاقدار في أيديها، وأن زمام الأمور مرهون بإشارة منها، وأن مقاليد الحياة تخضع لإرادتها ومشيئتها، فعليها ان تأمر وعلى الدنيا أن تطيع...

هكذا، في هذا الموقف يضيع كل شيء وتتلاشى كل أبهة، وتتعرى أجساد هؤلاء من ثيابها ليحل محلها سرابيل من قطران وتغشى وجوههم النار ...

كما تتعرى أفكارهم وتُخرج الصدور ما فيها ... ﴿ **يوم تُبلى السرائر* فما له من قوة ولا ناصر** ﴾ (١) .

فلا مجال للكذب، ولا وسيلة للخداع، ولا مكان للفرح والمرح القديم. ثم يقال لهم :

---

(١) سورة الطارق : (٩-١٠).

﴿ ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾[1] .

ذلك موقف تستحضره نصوص القرآن على عجل من المستقبل الآتي يبشر ويحذر :

يبشر الذين آمنوا بالبعث والجزاء بحسن المثوبة والفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويحذر المنكرين والجاحدين بسوء الموقف وسوء المستقبل والمصير . ويوضح للبشر جميعا مجموعة من الحقائق المهمة هي :

١- أن يومهم الذي يعيشون فيه وراءه يوم آخر أبقى وأخلد .

٢- وأن حياتهم التى يحيونها ، وراءها حياة أخرى أدوم وأعظم .

٣- وأن دنياهم التى جاءوا إليها وعاشوا فيها، وراءها آخرة يقفون فيها أمام ربهم فيجازيهم بما كسبوا ويحاسبهم على ماقدمت أيديهم .

٤- وأن مستقبلهم الآتي بعد هذه الحياة يصنعونه هم، باختيارهم المحض، وبإرادتهم الحرة، وعليهم أن يعدوا أنفسهم له وأن يختاروا مصيرهم من الآن.

٥- وأن الموت الذي يواجه حياتهم ليس هو نهاية النهايات، وإنما هو رقدة مؤقتة، أو محطة فاصلة بين مرحلتين من الوجود .

كانت الأولى للغرس، والأخرى للحصاد وجنى الثمار .

ولن يكون الأمر كما يظن البعض مجرد موت وانتهى الأمر وإنما هنالك مواقف يحاسب فيها المرء ويسأل عن الصغير والكبير من أعماله كلها .

---

(١) سورة غافر : (٧٥-٧٦).

ولو أنّا إذا متنا تركنا لكان الموت راحة كل حي
ولكنّا إذ متنا بُعثنا ونُسْأل بعد ذا عن كل شيء

ولا شك أن الحقيقة يجب أن تدفعنا إلى التفكير في المستقبل والاستعداد له، والتفكير في المستقبل لا يعني أن يخطط الإنسان ليومه الحاضر فقط وألا يهتم إلا بشيخوخته كما يفعل البعض فيسارع بالتأمين عليها ليستريح خلالها ولا يحتاج لغيره.

فليس هذا هو المستقبل الحقيقي، إنما المستقبل الحقيقي هو فيمابعد هذه الحياة لأنه هو المستقبل الباقي الخالد الذي لا تهدده شيخوخة ولا ينغصه مرض ولايعدو عليه الفناء .. لكن النظر القاصر والنظرة الضيقة تحصر المستقبل فقط في هذه الحياة الفانية ..

يقول العلامة محمد الغزالى : «وأغلب البشر في يومنا هذا لا يعرفون المستقبل إلا في هذا النطاق الضيق، فإذا قال أحدهم : أنا أفكر في مستقبلى فليس يعني إلا غده القريب وشيخوخته المقبلة ...

أما النظر في الدار الآخرة وإعداد ما يغنى فيها، فالفكر فيه بعيد مع كثرة النُّذر وموت العشرات والمئات كل ساعة ..» [1] .

﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون* مايأتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم..﴾ [2].

---

(١) المحاور الخمسة للقرآن الكريم للعلامة الإمام الشيخ محمد الغزالى ص ١٥٢ .
الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ-١٩٨٩م-دار الصحوة .
(٢) سورة الأنبياء : (١-٣) .

فالإحساس بأن الموت عدمٌ؛ إحساسٌ كاذب، وللأسف الشديد ان أغلب الناس لايُعدُّ نفسه الإعداد اللائق للقاء الله . .

وقد يملأ الدنيا بالفساد والعناد، ويملأ الصفحات والصحف بالكذب والافتراء والاباطيل والإفك على الله ورسوله، والنيل من حقائق الدين .

وقد يتصدى له أهل اليقين والإيمان ويشتد الجدال بين الفريقين كما يحدث الآن . . .

لكن نهاية المطاف ستكون هناك وليس هنا، حيث يستأنف الجدال من جديد أمام الله رب الجميع، ويختصم الطرفان إليه في موقف حاسم يحق فيه الحق ويبطل الباطل، ويسعد فيه قوم ويشقى آخرون .

وذلك ما نبه القرآن إليه حين كان الجدال يشتد بين رسول الله ﷺ وبين المنكرين والجاحدين . . . فنزل القرآن ليذكر النبى ﷺ بأن جدالهم معه هنا سيستأنف هناك في الدار الآخرة، ولن تكون الدنيا بما يخُطُّونه فيها من زور وبهتان هي نهاية المطاف .

وأن ألسنتهم الحداد ستخسأ هناك . . .

وأن تطاولهم سيكون له حد وعقاب . . .

لذلك يقول لرسوله ﷺ : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون * ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾[1] .

والقرآن يعرض هذا ﴿ **ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾[2] .

وتطوى أبعاد الزمان والمكان، ويعرض القرآن مصير المتجادلين في الدار الآخرة ...

﴿ **هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قُطّعت لهم ثياب من نار يُصب من فوق رءوسهم الحميم * يصهر به ما في بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[3] .

هذا فريق الجاحدين المنكرين .

وأما المؤمنون بالله واليوم الآخر، فيعرض القرآن مصيرهم وما أعد لهم من مثوبة وجزاء ورضوان فيقول :

﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وهُدوا إلى الطيب من القول وهُدوا إلى صراط الحميد** ﴾[4] .

---

(١) سورة الزمر : (٣٠-٣١) .
(٢) سورة النحل : ٣٩ .
(٣) سورة الحج : (١٩-٢٢).
(٤) سورة الحج : (٢٣-٢٤).

لذلك جاءت نصوص القرآن الكريم تبين للإنسان :

من هو ...؟

ومن أين جاء ...؟

وما هي مهمته ورسالته ...؟

وإلى أين يصير ...؟

وكثرت وتنوعت ضمن خطابه صور البعث بعد الموت، والدار الآخرة وعدالة الله فيها، وحسابها الدقيق، ونعيمها المستمر الخالد، وعذابها الدائم.

وأن المسلك اللائق والمنطقى هو الإيمان بالله واليوم الآخر .

وأن إنكار البعث بعد الموت يتنافى أصلا مع أبسط قواعد المنطق العقلي، كما يتنافى ويتناقض مع تبعة المسئولية الفردية، وعدالة الجزاء، ودقة الحساب. وأنه يشكل خسارة ضخمة - بمنطق الماديين أنفسهم - في صفقة الحياة والموت، يضيع معها الماضي والحاضر.

زعم المنجم والطبيب كلاهما   لا تحشر الأجساد قلت إليكما
إن صح قولكما فلست بخاسر   وإن صح قولى فالخسار عليكما

وهذا الزعم الباطل قد رد عليه القرآن الكريم وطالب الإنسان أن يحكم عقله في هذه القضية الخطيرة ...

وأن يحسب حسابها جيدا ...

وألا يتمادى في الإنكار والجحود...

وأن يروض نفسه على قبول الحقائق دون عناد . . .

وأن يكون انقياده للحق عن طريق العقل الحر . . .

وأن يتخذ قراره بعد التفكير والتروي .

وألا يجعل مستقبله موضعا للمجازفة والمغامرة بإنكار البعث وجحود الثواب والعقاب والنعيم والجحيم فيه . وأنه مع الله على موعد يُحصي عليه أفعاله وينبئه بما عمل .

قال تعالى :

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بماعملتم وذلك على الله يسير * فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾ . [١]

لذلك، فإن المسلك اللائق والمنطقي، والموقف الناضج الرشيد الذي يبنى على الحجة والدليل ويستند إلى براهين العلم واليقين هو الإيمان بالله واليوم الآخر والشهادة بأن الله حق وأن الجنة حق، وأن النار حق . . .

وهذا المعنى قد وجهنا إليه رسول الله ﷺ في عبارات مفعمة باليقين الصادق عندما كان يقوم من الليل متهجدا فيقول :

«اللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن .

ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن .

ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق،

---

(١) سورة التغابن (٧-٨) .

والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق، والساعة حق...

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ..

أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

---

(١) رواه البخارى في باب التهجد بالليل، فتح الباري ج ٣ ص ٣، تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ عبد العزيز بن باز، طبعة دار الفكر .

خاتمـة

وبعـد ..عـزيزي القـارئ نرجـو بعـد هذا العـرض أن تكون الصـورة قـد اكتملت، وأن تكون الحقيقة قد اتضحت، وأن تكون الخرافة قد افتضحت والغشاوة قد زالت ...

ونحن معك عزيزى القارئ على موعدين :

أحدهما : هنا، في هذا الوجود نتحاور فيه فنتفق أو نختلف فلا بأس.

والآخر : هناك، حيث نلتقي معا في عالم الخلود حين تخرس الألسنة، وتتلاشى الحجة، وتتجلى الحقيقة التى لا تقبل المراء أو الجدل وساعتها يتحدد المنطق بغير جدال بين فريقين في نقطتين اثنتين ...

تصرخ بإحداهما ألسنة المبطلين، وهي تعلن ندمها وحسرتها بعدما حطمت بطيشها وهواها وغرورها سفينة النجاة، وبددت بلعبها وهزوها فرصة الحياة في الدخول إلى دار النعيم والوقوف من خلاله على عتبات مستقبل لا فناء فيه ولا شقاء .

أما النقطة الاخرى، فتهتف بها ألسنة المحقين الذين استجابوا لربهم ولبُّوا نداء العقل والفطرة بغير عناد أو مكابرة، وتحملوا في دنياهم معاناة الحياة حين عاشوها بضوابط القيم الإسلامية في تحديد الحلال والحرام

والمباح والمحظور وسط بيئة مملوءة بكل وسائل الإغراء، يدفعهم تيارها دفعا إلى التجاوز والانحراف، وتغريهم شهواتها بكل ما فيها من زينة ومباهج حين تعرض نفسها عرضا في وضوح سافر وسفور يتبجح .. ولكنهم تعالَوْا بأنفسهم وسموْا بغرائزهم وأخلاقهم وعاشوا وسط اللهيب ولم يحترقوا .

هؤلاء تتلقاهم الملائكة مبشرين قائلين :

هذا هو اليوم الذي آمنتم به وتحملتم من أجله معاناة الدنيا، هذا يومكم الذي كنتم توعدون، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

فإذا بهم بعدما تستقبلهم بشاشة النعمة وبشائر الرضوان الأعلى يهتفون من أعماقهم والسرور يملأ حياتهم قائلين : الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأُ من الجنة حيث نشاء .. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب .

وتمنياتى عزيزي القارئ أن نلتقي بك هناك ضمن هذا الفريق .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

- السنة النبوية المطهرة.

١- صحيح البخاري.

٢- فتح الباري تحقيق العلامة محمد فؤاد عبد الباقي والشيخ عبد العزيز بن باز، طبعة دار الفكر.

٣- صحيح الجامع الصغير للإمام السيوطي تحقيق / محمد ناصر الدين الألباني.

٤- تفسير التحرير والتنوير للإمام العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور الدار التونسية للنشر.

٥- تفسير الظلال للشهيد سيد قطب الطبعة العاشرة، دار الشروق ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٦- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، تحقيق ومراجعة الشيخ إبراهيم عطوة عوض مطبعة البابى الحلبى - الطبعة الأولى ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

٧ـ التفسير القرآني للقرآن للأستاذ / عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربي .

٨ـ المحاور الخمسة للقرآن الكريم للإمام المرحوم الشيخ محمد الغزالي ـ دار الصحوة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٩ـ معجم الفلاسفة إعداد جورج طرابيشي ـ دار الطليعة ـ بيروت .

١٠ـ الموسوعة العربية الميسرة إشراف محمد شفيق غربال ـ دار إحياء التراث العربي بيروت ـ لبنان .

المحتويات

الصفحة

إهـــداء	٥
مقدمة	٧
من أنا؟؟	١١
حيرة الفلسفة في تعريف الإنسان	١٢
حيلة ساذجة وموقف عاجز	١٦
أمراض النفس وعلاج القرآن لها	٢٥
ميادين عمل الموعظة	٢٩
من أين جئت؟	٣٣
العلم أول مؤهلات الخلافة	٤٥
أبعاد مهمة الإنسان في الأرض	٥١
فقه الحياة فريضة دينية	٥٦
مناخ النهضة	٦٦
الميراث الذي أوشك أن يضيع	٧٢
جنون الفكر والانتحار العقلي	٨٢
عندما تخرس الألسنة ويتلاشى الضلال	٨٤
خصومة إلى يوم الحساب	٨٧
خاتمة	٩٣
المصادر والمراجع	٩٥

رقم الإيداع
٩٩/٤٩٨٢

الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 09 - 0540 - 2